1

في خريف 1997، اتصل جورج اتش دبليو بوش، البالغ الـ 74 من العمر والخارج من البيت الأبيض منذ خمس سنوات، بأحد أقرب أصدقائه، بالأمير بندر بن سلطان، سفير العربية السعودية العتيد في الولايات المتحدة.

قال بوش: "دبليو يرغب في التحدث معك إذا كان وقتك يسمح بذلك، يا بندر. هل تستطيع أن تمر بنا وتتحدث معه؟". ابنه البكر وسميه، جورج دبليو بوش، الذي كان حكماً لولاية تكساس منذ نحو ثلاث سنوات، كان عاكفاً على استشارة حفنة من الناس حول قرار مهم وقد أراد أن يجري حواراً خاصاً.

حياة بندر قائمة على مثل هذه الحوارات الخاصة. لم يسأل عن السبب، على الرغم من وفرة التخمينات الإعلامية الدائرة حول تفكير دبليو بخوض معركة الرئاسة. كان بندر البالغ الـ 49 من العمر سفيراً للسعودية منذ 15 سنة، ومتمتعاً بمكانة استثنائية في واشنطن. وحرصه على إقامة الصلات الكثيرة ربما لم يكن يضاهيه سوى حرص الرئيس السابق بوش.

كان الرجلان قد أقاما حلفاً في ثمانينيات القرن العشرين. ومع أن بوش، نائب الرئيس شبه المتواري في ظل الرئيس رونالد ريغان، كان يتعرض لقدرٍ واسع من الإهمال بوصفه ضعيفاً بلا شخصية، فإن بندراً كان يعامله بقدرٍ من الاحترام، الاهتمام والجدية يليق برئيس مستقبلي. أقام حفلة كبرى على شرف بوش في دارته الفخمة المشرفة على نهر البوتوماك أحيتها المغنية روبرتا فلاك، ورافقه في صيد السمك في منتجع بوش في كنكبورت المينية - تلك الرياضة التي لا يستسيغها بندر ولكن بوش يعشقها. تمثل جوهر علاقتهما بالتواصل الدائم، عبر الهاتف وشخصياً.

بوصفهما ضابطي استخبارات ناجحين. كانت الصداقة مفيدة وصادقة، وكانت صفتا الجدوى والصدق تتبادلان التعزيز. خلال حرب بوش الخليجية في 1991 لطرد صدام

حسين من الكويت ومنعه من غزو العربية السعودية المجاورة، كان بندر عضواً افتراضياً في مجلس بوش الحربي.

نحو الساعة الرابعة من فجر يوم الانتخاب في 1992، حين بدا أن بوش موشك على الإخفاق في الفوز بفترة ثانية، كان بندر قد بعث إليه برسالة خاصة يقول له فيها: أنت صديقي مدى الحياة. أنت أنقذت بلدي. أشعر وكأنني أحد أفراد عائلتك، وتبو أنت كما لو كنت واحداً منا. هل تعلم، سيدة الرئيس؟ إنك فائز في الحالتين. ينبغي ن تفوز. أنت تستحق الفوز. أما إذا خسرت فإنك جدير بأن تكون في موقع ونستن تشيرتشل الذي ربح الحرب وخسر الانتخابات.

اتصل بوش لاحقاً في اليوم نفسه، نحو الساعة الواحدة بعد الظهر وقال: "الخير السار الوحيد الذي تلقيته طوال النهار، يـ بندر العزيز، هو خطابك". وبعد اثنتي عشرة ساعة من انقضاء يوم الانتخاب اتصل بوش مرة أخرى وقال: "انتهى الأمر".

ما لبث بندر أن أصبح مسؤولاً عن معالجة وضع بوش عاكفاً على إخراجه من قوقعة الحالة الشبيهة بالاكتئاب. كان أول زائريه في كنبنكبورت ضعيفاً بعد خروجه من البيت الأبيض، وقد زاره هناك مرتين أخريين. درج على عادة نقل بعض الأصدقاء جواً من إنجلترا للقاء بوش في هيوستن. في كانون الثاني/يناير 1993 اصطحب بوش إلى قصره المؤلف من 32 غرفة في آسبن الكولورادية. وحين دخل الرئيس السابق فوجئ بزاوية تحمل عنوان "جناح حرب الصحراء" نسبة إلى العملية العسكرية التي قادتها الولايات المتحدة في حرب الخليج. كانت صورة بوش في الوسط. كان بندر يلعب التنس وغيرها من الألعاب مع بوش حرصاً منه على إبقاء الرئيس السابق مشغولاً.

جامعاً بين اللهو، الجد، القسوة واللين كان بندر أشبه بحالة خامسة في واشنطن دائبة على إشغال الدوائر السياسية والإعلامية بقدرٍ مهووس من التركيز. أما سفيراً لبلده فقد بقي اهتمامه منصباً في المقام الأول على الرئاسة، بصرف النظر عن شغل المنصب، ضامناً بقاء بابها مفتوحاً أمام العربية السعودية المتمتعة بأكبر رصيد احتياطي نفطي ولكن دون جيش قوي في شرق أوسط شديد الاضطراب. حين غادر مايكل ديفر، أحد مساعدي الرئيس ريغان في البيت الأبيض، مكاتب الرئاسة ليباشر الحملة الدعائية، سارعت السيدة الأولى نانسي ريغان إلى الاتصال ببندر، صديقها، لتطلب منه أن يساعده.

كان بندر في متناول اليد ليلة انتخابات 1994 حين خاض نجلا بوش جورج دبليو وجب للفوز بمنصبي حاكمي تكساس وفلوريدا. كان بوش والسيدة الأولى السابقة باربارة يتوقعان فوز جب في فلوريدا وسقوط جورج دبليو في تكساس. دُهش بندر لدى تدفق نتائج الانتخابات تلك الليلة وهو يرى بوش جالساً ومعه أربع صفحات من الأسماء وأرقام الهواتف - صفحتان لتكساس وأخريان لفلوريدا. مثل وكيل مراهنات فيغاسي ظل بوش، السهرة كلها، يدير الأرقام، يتصل، يسأل، يتوجه بالشكر إلى الجميع - جامعاً داقعاً. كان منصفاً في توزيع الوقت والاهتمام مناصفةً بين أولئك الذين دعموا حاكم تكساس الجديد والمحاولة غير الموفقة في فلوريدا.

أدرك بندر أنه يستطيع أن يراهن على كل هذه العلاقات. تمت بقدرٍ كبير من الخفة واللمسة الإنسانية فلم تبد اغتصاباً أو تطفلاً على الإطلاق. قال فرد دتون، أحد العاملين مع كندي في ستينيات القرن العشرين ومحامي بندر وداعيته في واشنطن، إن تلك كانت الطريقة التي درج العجوز كندي، السفير جوزف بي كندي، على اعتمادها، على الرغم من أن أسلوب كندي لم يكن خفيفاً على الإطلاق.

خطط بندر لزيارته في 1997 مع حاكم تكساس بمناسبة مباراة كرة قدم محلية لأحبائه رعاة بقر دالاس. كان من شأن ذلك أن يوفر له "غطاء" كما زعم. أراد اللقاء أن يكون شديد الكتمان والحذر، وأوعز لطائرته النفاثة الخاصة أن تهبط في أوستن.

لدى الهبوط هرع كبير مرافقي بندر إليه ليبلغه بأن حاكم الولاية كان هناك سلفاً خرج الطائرة. مشى بندر بين صفي الكراسي ليخرج.

حياة جورج دبليو عند الباب حتى قبل أن يتمكن بندر من مغادرة الطائرة: "هاي! كيف حالك؟" بدا تواقاً للكلام.

"هنا؟" سأل بندر متوقعاً أن ينتقلا إلى دارة الحاكم أو مكتبه.

"نعم، أُفَضِّل هنا".

عمل بندر طيار مقاتلة سعودية مدة 17 سنة وكان ممن يفضلهم الملك فهد؛ كان أبوه الأمير سلطان وزير الدفاع السعودي. أما بوش فكان طيار نفاثة في سلاح الجو التابع للحرس الوطني التكساسي. صحيح أنهما كانا قد التقيا ولكن جورج دبليو لم يكن، بنظر بندر، سوى نجل آخر من أنجال الرئيس السابق الأربعة، وليس أميزهم.

بادره بوش الذي كان في الثانية والخمسين من العمر قائلاً: "أفكر بالترشح للرئاسة". بالكاد كان قد بدأ حملته لإعادة انتخابه حاكماً لولاية تكساس. منذ أشهر وهو يتحرك بكثير من الحذر محاولاً ألا يشوه صورته بوصفه مرشحاً رئاسياً محتملاً مع الحرص على عدم الاستعجال في البروز، أو إشعار ناخبي تكساس بأنه يتطلع إلى ما بعدهم.

قام بوش بإبلاغ بندر بأنه كان متوفراً على آراء واضحة حول ما ينبغي على صعيد السياسة القومية الداخلية. غير أنه أضاف: "إنني شديد التشوش حول ما أفكر به على صعيد السياسة الدولية، الخارجية".

"وقد قال لي أبي قبل أن أتخذ قراري: "اذهب وتحدث مع بندر. أولاً، إنه صديقنا. و"نا" هنا تعني أمريكا، لا عائلة بوش وحدها. ثانياً، هو يعرف الجميع في العالم ومن له وزن، وثالثاً، سيزوّدك بما يراه حاصلاً في العالم. ربما يستطيع أن يرتب لك لقاءات مع أناس في طول العالم وعرضه".

أجابه بندر: "أخجلتني أيها الحاكم، أولاً، إذ طرحت علي هذا السؤال". وبعد نفس طويل أضاف بندر: "ثانياً، هل أنت متأكد من أنك ستُقْدِمُ على هذا الأمر؟" ففوز أبيه الذي ترشح بوصفه نائباً للرئيس ليخلف ريغان المتمتع بشعبية واسعة في انتخابات 1988 الرئاسية كان شيئاً، غير أن انتزاع البيت الأبيض من براثن بل كلنتون والديمقراطيين، الذي سيقومون، حسب أقوى الاحتمالات، بترشيح نائب الرئيس آل غور من شأنه أن يكون شيئاً مختلفاً. وأضاف بندر عن كلنتون: "هذا الرئيس، لا ريغان، هو "تفلون"(*) حقيقي".

اتقدت عينا بوش! بدا وكأن بوش الابن كان راغباً في الانتقام لخسارة أبيه أمام كلنتون. كانت لحظة مكهربة. اعتقد بندر أن الابن أراد أن يقول: "أريد مطاردة هذا وإفهامه من هو الأفضل". فهم بندر الرسالة. كان بوش الابن يريد شجاراً. قال: "حسناً، ما الذي تريد معرفته؟"

أفاد بوش بأن بندر هو الذي ينبغي أن يختار ما هو مهم، فبادر الأخير بتوفير جولة على العالم. بوصفه سفير المملكة العربية السعودية الغنية بالنفط في الولايات المتحدة كان الرجل على صلة بقادة العالم وكان الملك فهد ينتدبه بانتظام للقيام بمهمات سرية،

(*) مادة شمعية تطلى بها أوعية الطهي لمنع الالتصاق.

واسطة خير دولة، مهمات مستحيلة في كثير من الأحيان. كانت له علاقات شخصية مع قادة روسيا، الصين، سورية، بريطانيا العظمى. كان بندر يتحدث بصراحة عن كثير من القادة في الشرق الأوسط، في الشرق الأقصى، في روسيا، في الصين وفي أوروبا. وقد روى قصة بعض لقاءاته الشخصية كتلك التي أجراها مع ميخائيل غورباتشوف حول الانسحاب السوفيتي من أفغانستان. تحدث عن ماغي تاتشر وعن رئيس الوزراء البريطاني الحالي توني بلير. قام بندر بوصف الدور السعودي في العمل مع كل من البابا وريغان من أجل التصدي للشيوعية. ما أكثر ما كانت الدبلوماسية تفضي إلى لقاءات غريبة!

علق بوش: "ثمة أناس هم أعداؤكم في هذا البلد وهم يعتقدون أيضاً أن أبي صديقكم".

سأل بندر: "إذن؟" دون أن يسأل عمن يعنيهم بوش رغم أن الإشارة كانت، بوضوح، إلى مؤيدي إسرائيل، بين آخرين.

بكثير من الإطناب حاول بوش أن يقول إن أولئك الذين لم يريدوا فوز أبيه في 1992 سيكونون ضده أيضاً إذا ما ترشح. إنهم أولئك الذين يكرهون بندراً أنفسهم.

سأل بندر: "هل يمكنني أن أقدم لك نصيحة واحدة؟"

"ماذا؟"

"أيها الحاكم، قل لي هل أنت راغب فعلاً في أن تكون رئيساً للولايات المتحدة؟"

أجاب بوش بنعم.

"إذن أريد أن أقول لك شيئاً: كل من تعتقد أنه يكره أباك أو صديقك ويمكنه أن يكون مهماً ويحدث فرقاً في الفوز، بادر إلى ابتلاع كبريائك وصادقه. وأنا أستطيع أن أساعدك. أستطيع أن أساعدك وأن أتذمر منك، تأكد من إفهامهم ذلك، وسوف يؤدي ذلك بالتأكيد إلى مساعدتك".

أدرك بوش فحوى نصيحة العراب: "ليكن الأصدقاء قريبين، ولكن الأعداء أقرب". غير أنه بدا غير مطمئن فعلّق أن الأمر لا يتصف بقدرٍ استثنائي من الاستقامة والشرف.

قال بندر: "لا تبال إذا كنت صادق الرغبة في أن تتحلى بالصدق. لست على كرسي الاعتراف. إذا كنت مصراً على التمسك بالأمر، فاستمتع بهذه الدورة فقط وافعل شيئاً مسلياً. في لعبة الكبار ثمة حز للرقاب، ثمة معارك دامية وثمة أشياء غير سارة".

قام بندر بتغيير الموضوع: "كنت موشكاً على أن أخبرك بشيء لا علاقة له بالأمور الدولية. حين كنت أقود طائرات إف - 102 في شيرمان التكساسية، قاعدة برين التابعة لسلاح الجو كنت أنت تقود طائرات إف - 102 في قاعدة جوية تكساسية أخرى. قدرانا أديا إلى ربط أحدنا بالآخر منذ زمن طويل عبر الطيران دون أن يكون أي منا يعرف الآخر". ثم عبر عن الرغبة في اقتراح فكرة أخرى.

"ماذا؟"

"أرجو أن تكون مازلت تتذكر ما تعلمته في سلاح الجو. أنا أتذكر الأمر لأنني أمضيت 17 سنة في الطيران. أما أنت فلم تمارس الطيران سوى بضعة أعوام. ثبّت عينك على الكرة. حين أكون على متن تلك النفاثة وتكون حياتي على الخط، والتقط الطائرة المعادية تلك، لا أبالي بما يجري حولي ولو هلك كل شيء. سأبقى مثبتاً ناظري على تلك الطائرة، وسأفعل كل ما أستطيعه. لن أزيح بصري عن الهدف على الإطلاق".

واصل الرئيس السابق بوش جهوده الرامية إلى توسيع آفاق ابنه والعمل ربما لتجنيد أركان مستقبليين.

قال لكوندوليزا رايس، أمينة ستانفورد وإحدى أعضاء جهاز الأمن القومي الشباب عنده أيام وجوده في البيت الأبيض والبالغة الثالثة والأربعين من العمر: "جورج دبليو يفكر، كما تعلمين، بما قد يتعين عليه أن يفعله. سيخرج للمجيء إلى كنبنكبورت. ما رأيك بالمجيء إلى كنبنكبورت لقضاء نهاية الأسبوع؟"

كان ذلك في آب/أغسطس 1988 . كان الرئيس السابق يقترح حلقة دراسية في التخطيط والسياسة لابنه.

كانت رايس كبيرة خبراء الشؤون الروسية في مجلس الأمن القومي، وكانت قد التقت جورج دبليو في إحدى حفلات استقبال البيت الأبيض. وكانت قد رأته ثانية في 1995، حين جاءت إلى هيوستن لحضور اجتماع مجلس إدارة تشيفرون، الذي كانت أحد أعضائه، ودعاها بوش الأب إلى أوستن، حيث كان دبليو قد أقسم يمين تولي منصب

حاكم الولاية للتو. تحدثت مع الحاكم الجديد عن العائلة والرياضة ثم شعرت كما لو كانت نبتة غريبة وهي جالسة مع الرئيس السابق على مائدة غداء بوش الابن جنباً إلى جنب مع رئيس مجلس تكساس التشريعي ومعاون الحاكم.

لم تكن نهاية أسبوع كنبنكبورت سوى واحدة من رحلات آب/أغسطس الممتدة من الخميس إلى الأحد في معسكر بوش للفطور، الغداء، العشاء، صيد السمك، حدوات الخيل وغيرها من المنافسات.

قال حاكم الولاية بوش لرايس: "لا أتوفر على أي فكرة عن السياسة الخارجية. ليس هذه عملي".

شعرتْ رايس بالارتباك وراحت تتساءل: هل يتعين علي أن أفعل هذا؟ أو ربما: هل أستطيع أن أقوم بمثل هذه المهمة؟ وفيما كان الأب والابن بعيدين على متن القارب مشغولين بصيد السمك، طلب منها بوش الأصغر سناً أن تتحدث عن الصين، ثم عن روسيا. ظلت أسئلته تتدفق طوال نهاية الأسبوع - ماذا عن هذا البلد؟ هذا الزعيم؟ هذه المسألة؟ ما الذي قد تعنيه؟ وما كانت طبيعة الزاوية بالنسبة إلى سياسة الولايات المتحدة؟

أوائل السنة التالية، بعد إعادة انتخابه حاكماً لتكساس وقبل إعلانه رسمياً ترشحه للرئاسة، دُعيت رايس ثانيةً إلى أوستن. كانت موشكة على التخلي عن منصب أمانة ستانفورد وتفكر بأخذ إجازة لمدة سنة أو الالتحاق بالعمل المصرفي الاستثماري لعامين اثنين.

قال لها بوش: "أريدك أن تتولي إدارة سياستي الخارجية". تعين عليها أن تبادر إلى تجنيد فريق من الخبراء.

ردت رايس موافقة: "حسناً، من شأن ذلك أن يكون مثيراً". تلك كانت طلقة موفقة على صعيد اقتناص منصب قمة السياسة الخارجية إذا ما فاز.

أثار بوش قضية مهمة مع مستشارته الحميمة كارن هيوز، ذات الأعوام الثلاثة والأربعين، إحدى مراسلات التلفزيون السابقات التي كانت قد عملت لمدة خمس سنوات بوصفها قيصرة اتصالاته في تكساس.

عبّر عن الحاجة إلى التعبير عن سبب رغبته في أن يكون رئيساً، قال: "لابد من وجود سبب، كما تعلمين. يجب أن يكون هناك سبب يدعو بالضرورة إلى خوض المعركة".

راحت هيوز تبحث عن أطروحة مركزية للحملة. كانت تعلم أن لدى بوش ثلاث هوايات سياسية. أولاً: ثمة كانت تلك المبادرات المزعومة القائمة على الإيمان - خطط ضخ المزيد من الأموال الحكومية في قنوات برامج اجتماعية عائدة لجماعات دينية. صحيح أن الحماسة كانت حقيقية، غير أنها لم تكن مؤهلة لتشكيل العمود الفقري لأي حملة رئاسية.

ثانياً، كان بوش مهتماً بالتعليم. إلا أن مدارس أمريكا تدار على مستوى الولاية والبلدة. من الصعب خوض معركة رئاسية من منطلق برنامج خاص بالتعليم على المستوى القومي.

بدا إيمان بوش الثالث بتقليص الضرائب منطوياً على نوع من الوعد. من شأن الأمر أن يوفر منطقاً. سيرة الحملة الذاتية التي كتبتها هيوز مع بوش - **حملة مستمرة**، صدرت في تشرين الثاني/نوفمبر 1999 - تضمنت 19 بنداً عن "التعليم" و17 فقرة تحت عنوان "الضرائب". أما "المنظمات الإيمانية" فواردة ثلاث مرات. عبارة "سياسة خارجية" ترد مرتين، وكلتاهما في سياق التجارة الحرة. كانت ثمة إشارة يتيمة إلى العراق، دون أي ذكر لصدام حسين، الإرهابيين أو الإرهاب.

خلال إحدى الدورات الانتخابية التمهيدية في 2000 اتصل بوش بآل هوبارد، نائب جهاز العاملين السابق لدى نائب أبيه جي دانفورث كويل، وأحد أعضاء فريق مستشارين كان بوش الأب قد جندهم لتثقيف نجله في الأمور الاقتصادية، وصرخ مندهشاً: "هل تستطيع يا هوبارد أن تصدق أن هذا هو الموضوع الذي أخوض الانتخاب من أجله؟! موضوع خفض الضرائب؟!".

قام بوش بدعوة ريتشارد آرميتاج، معاون وزير دفاع سابق في إدارة ريغان، إلى الالتحاق بفريق مستشاري السياسة الخارجية عنده. وآرميتاج هذا، ذو الأعوام الأربعة والخمسين، كان أفضل أصدقاء كولن باول. كان آرميتاج صاحب الصدر البرميلي والرأس الحليق، المولع برفع الأثقال والقادر على إزاحة 330 رطلاً إنجليزياً، خريج الأكاديمية البحرية في 1967. التحق بالركب لأنه اقتنع بأن إدارة كلنتون مفتقرة إلى النظرية أو المبدأ الداعم لسياساتها الخارجية والدفاعية. بدت خاصة. رأى أن الجمهوريين قد يصوّبون الأمر. كان آرميتاج من المعجبين ببوش الأب الذي شعر بأنه كان يدرك ضرورة اعتماد سياسة خارجية قوية معدلة بضبط النفس.

كان جيش الولايات المتحدة أكبر جيوش العالم وقادر على التحكم بأي وضع أو فرض الاستقرار عليه بنظر آرميتاج. كان كلنتون وفريقه قد أخفقوا في تطوير استراتيجيات خروج مناسبة للخروج من جملة من الورطات الخارجية مثل البوسنة وكوسوفو في البلقان.

مهمة كبرى أمام الرئيس الجديد، برأيه تمثلت بما لا يقل عن تحديد هدف السياسة الخارجية الأمريكية. فريق رايس كانوا يطلقون على أنفسهم اسم آلهة النار. بدأت التسمية مُزاحاً لأن في مسقط رأس رايس بيرمنغهام الآلاباما الشهيرة بمصانع الصلب تمثالاً لفولكان، إلهة النار والمعادن الرومانية. غير أن الجماعة التي كانت تضم بوش وولفوفيتز، معاون تشيني للتخطيط السياسي في البنتاغون، أعجبتها خشونة الصورة، وسرعان ما باتت التسمية، آلهة النار، معتمدة ذاتياً.

في 1999 حضر آرميتاج خمسة اجتماعات مع بوش مع آلهة نار مختلفين. وجد ما سرّه وما لم يسره. لعل أقوى بواعث السرور هو أن بوش كان راغباً في جعل باول وزيراً للخارجية.

وفي اجتماع آلهة النار الأول في شباط/فبراير 1999 كان بوش قد سأل: "هل سيكون الدفاع قضية في حملة الـ 2000؟" جاء رد المستشارين سلبياً. عبر بوش عن رغبته في جعل الدفاع قضية. أضاف أنه يريد تغيير الجيش، جعله في وضع يمكّنه من التعامل مع تهديدات جديدة وناشئة.

تحقيق ذلك كان يتطلب، برأي المستشارين، تزويد الجيش بمعدات جديدة تمكّنه من أن يصبح أكثر حركة وحداثة، واعتماد أساليب أكثر تقدماً على صعيدي التدريب والتقاط المعلومات الاستخباراتية. ومن شأن مثل هذه العمليات أن تستغرق مدة تتراوح بين 15 و20 سنة قبل تحقق الإيجابيات الفعلية. من شأنها أن تتجاوز حقبة رئاسة بوش بل وحتى أعمارهم الزمنية.

أشار بوش إلى أنه راغب في المراهنة على مثل هذا التوظيف. عكف آرميتاج وآخرون على إعداد خطاب ألقاه بوش في السيتادل (القلعة)، الجامعة العسكرية العامة في نورث كارولاينا يوم 23 أيلول/سبتمبر 1999.

قال بوش: "سأدافع عن الشعب الأمريكي ضد الصواريخ والإرهاب. وسأباشر عملية إيجاد جيش القرن المقبل.... أصبح الدفاع عن الوطن واجباً ملحاً". وأتى على

ذكر ما هو محتمل من "تهديد إرهاب بيولوجي، كيميائي ونووي... يجب على كل جماعة أو دولة أن تعلم، إذا أقدمت على رعاية مثل هذه الهجمات، أن ردنا سيكون مدمراً و كاسحاً".

"حتى إذا تم انتخابي لن أتولى قياد الجيش الجديد الذي نوجده. سيُترك الأمر للرئيس الذي يأتي بعدي. فنتائج جهودنا لن تظهر للعيان إلا بعد سنوات عديدة".

كان آرميتاج مسروراً لرؤية الواقعية في حملة رئاسية. فقد كان يرى أن الإرهاب، والأعمال المحتملة من جانب دولة مارقة مثل العراق، إيران وكوريا الشمالية، قد تكون مشكلة، غير أنها ليست قاتلة. والقضايا الكبرى في السياسة الدفاعية تمثلت بالعلاقات مع كل من روسيا، الصين والهند.

غير أن أخباراً غير سارة عن بوش كنت متوفرة أيضاً. قال آرميتاج لباول: "لسبب ما، يعتقد أنه سيكون رئيساً للجمهورية". بدا وكأن هناك نوعاً من الإحساس القدري. تحدث بوش كما لو كان على يقين، إذ قال: "حين أكون رئيساً...". ومع أن كلام المرشحين بهذه الطريقة في الخطب ليس بعيداً عن المألوف، فإن الفرق هو أن بوش استخدم هذه اللغة في خلواته مع مستشاريه. بدا وكأن بوش كان يحاول إقناع نفسه بأن الاحتمال وارد.

أضاف آرميتاج: وكانت ابتسامة بوش المتكلفة.

تمثلت المشكلة الكبرى، برأي آرميتاج، في أنه لم يكن متأكداً من قدرة بوش على ملء كرسي الرئاسة. كان الأخير شديد الافتقار إلى الخبرة. كان افتقار بوش إلى الخبرة مرعباً بنظر آرميتاج. وقد قال آرميتاج لزوجه وباول إنه لم يكن مطمئناً إلى أن حاكم الولاية بوش كان مدركاً لما ينطوي عليه كون الولايات المتحدة قوة عالمية من مضاعفات.

2

بين آلهة النار كان مخضرم آخر من بنتاغون تشيني ألا وهو ستفن جي هادلي، الذي كان معاوناً لوزير الدفاع لشؤون التخطيط للأمن الدولي. إنه المنصب الذي سبق لآرميتاج أن شغله في إدارة ريغان - نوع من وزارة خارجية داخل البنتاغون متركز على العلاقات الخارجية. كان هادلي البالغ الثانية والخمسين من العمر هادئاً وناعماً بمقدار ما كان آرميتاج صاخباً وخشناً. كان هادلي الناشئ والمترعرع في أوهايو، الخريج المتفوق في كورنل وحامل إجازة الحقوق من ييل دارساً للأمن القومي مع خدمة مبكرة في جهاز مجلس الأمن القومي في إدارة فورد.

كان هادلي قد شارك في إعداد خطاب بوش في القلعة. وحين عبر بوش عن الرغبة في امتلاك برنامج إصلاح أو تحويل للبنتاغون، سارع عدد من آلهة النار إلى إضهار معرفتهم لمعدات الجيش وتجهيزاته عبر إيراد سلسلة أسماء بعض العربات الأخف التي يمكن استخدامها بدلاً من الدبابات الثقيلة. بدأ بوش بطرح الأسئلة عن أنواع العربات الأخف وعن مميزاتها المختلفة.

قال هادلي لبوش: "أنت لا تريد في الحقيقة أن تصل إلى هناك، لأنك إذا بدأت باقتراح بديل للدبابة فإن هناك 200 اختصاصي في واشنطن مستعدين لمقاطعتك قائلين: "هذا الأفندي لا يعرف ما يتحدث عنه". لذا من الأفضل أن تبقى خارج الموضوع".

رد عليه بوش: "دعني أحدثك عما أفكر به حول الانتخابات. أريد إصلاح وزارة الدفاع. أدخل المعركة الانتخابية ولا آتي على ذكر الموضوع، ثم عندما يتم انتخابي أذهب إلى الأركان المشتركة لأقول: "بالمناسبة، أريد أن أصلح وزارة الدفاع،" فإنهم سيقولون: "ومن تكون أنت؟ لقد تم انتخابك. سترحل بعد أربع سنوات. أما نحن فباقون حيث نحن. شكراً جزيلاً".

"إذا صارحت الشعب الأمريكي وقلت له: "أنا عازم على إصلاح وزارة الدفاع. هاكم السبب. انظروا إلى ما أريد إنجازه". وحين يتم انتخابي وأذهب إلى الأركان المشتركة

لأقول: "الشعب الأمريكي انتخبني للتو من أجل أن أصلح وزارة الدفاع. من أين نبدأ؟ فإن الأمر سيكون مختلفاً كثيراً". يبدو أنه لم يكن يعلم أن رؤساء الأركان المشتركة، قادة الأسلحة، لا يبقون في مناصبهم سوى أربع سنوات. من الواضح أنه كان مؤمناً بأنهم كتلة أوابد.

في لقاء آخر خلال الحقبة المبكرة من ترشيح بوش، كان آلهة النار عاكفين على مناقشة الرقابة على التسلح. كانت لدى بوش أسئلة كثيرة وقد حصل على طوفان من الأجوبة. قال هادلي لبوش: "إنهم ممتازون بالنسبة إلى هذه المادة. لست بحاجة إلى كل الهراء الفني. لديك غرائز عظيمة. لو استطعت أن أقنعك بشيء واحد لقلت لك على الفور: "ضع ثقتك بدوافعك الغريزية – الفطرية!""

لم يكن بوش ليجد أي صعوبة في الثقة بغرائزه. لعل هذه الثقة كانت ديانته الثانية. ففي لقاء معي أنا، بعد عدد من الأعوام، في العشرين من آب/أغسطس 2002، ألمح أكثر من عشر مرات إلى "غرائزه" أو ردود أفعاله "الغريزية" بوصفها منطلقات لقراراته. وقد قال في أحد المنعطفات: "أنا لست لاعباً يستند إلى الكتب المدرسية. أنا لاعب أعتمد على الجرأة".

إضافةً إلى البحث عن أساتذة سياسة خارجية لنجله، أمضى الرئيس السابق سنوات ما بعد الرئاسة دائباً على الدفاع عن قراراته في حرب الخليج الفارسي لعام 1991. كانت الأمم المتحدة قد أجازت استخدام القوة لطرد جيش صدام من الكويت المجاورة التي كان صدام قد اجتاحها في الصيف السابق. كانت تلك مهمة محددة صادقت عليها أكثرية دول العالم. صحيح أن جيش صدام كان قد طُرد من الكويت، غير أن عدداً من المنتقدين، وكثرين من الجمهوريين المحافظين – قالوا، لأن صداماً كان قد نجا وبقي في الحكم –: إن بوش قد أخطأ؛ إذ لم ينجز المهمة المتمثلة بمواصلة الحرب والتقدم وصولاً إلى الإطاحة بدكتاتور العراق.

في الثامن والعشرين من شباط/فبراير 1999 كان الرئيس السابق ضيف شرف لقاء نحو 200 مقاتل ممن شاركوا في حرب الخليج في قاعدة فورت مير العائدة للجيش، مباشرةً بعد نهر البوتوماك بالقرب من واشنطن.

كان يُستفز حين يقال إن العمل لم يُنجز، قال: "ماذا لو دخلنا بغداد؟ – ونحن كنا قادرين على أن نفعل ذلك. كنتم أيها الشباب قادرين على فعل ذلك. كان بوسعكم أن

تحققوا الهدف في غضون 48 ساعة. وماذا بعد ذلك؟ حياة أي رقيب، أي جندي كانت ربما ستكون في خطر في غمار حرب عصابات مدنية غير مجدية بحثاً عن أكثر دكتاتوريي العالم أمناً. دم أي من هؤلاء كان سيكون على يدي بوصفي القائد الأعلى لأتي، أحادياً، تجاوزت القانون الدولي، تجاوزت المهمة المحددة، وقلت إن علينا أن نتاهى برجولتنا؟ لو دخلنا بغداد لأصبحنا قوة محتلة - أمريكا قوة محتلة في بلد عربي دون أي حليف في صفنا. كان من شأن ذلك أن يكون كارثياً".

تمكن جورج دبليو بوش من الفوز بترشيح الحزب الجمهوري الرئاسي، وبقي الأمير بندر على اتصال. في نهاية الأسبوع التي صادفت تاريخ العاشر من حزيران/يونيو 2000، حضر بندر حفلة مفاجئة بمناسبة عيد ميلاد باريارة بوش الـ 75 في منتجع العائلة في كنبنكبورت. رأى بندر أنها كانت تافهة من الطراز القديم، جرى استكمالها بعرض قدمه أعضاء عائلة بوش لمدة 45 دقيقة زاخرة بفيض من التعليقات الساخرة. أدهشته الجهود المبذولة لإخراج هذه الطرائف العائلية ولكنه وجد العرض مسلياً.

قام جورج دبليو بسحب بندر جانباً، وقال:

"متأكد أنا يا بندر من أنك أعظم ... خبر العالم. فسّر لي شيئاً واحداً".

"وما هو هذا الشيء يا حاكم؟"

"لماذا يجب أن أهتم بكوريا الشمالية؟"

أقر بندر بعدم معرفة الجواب. كانت كوريا الشمالية إحدى الدول القليلة التي لم يتعامل معها تنفيذاً لتوجيهات الملك فهد.

تابع بوش كلامه: "أحصل على جملة هذه الإيجازات عن سائر أجزاء العالم والجميع يحدثونني عن كوريا الشمالية".

رد عليه بندر: "اسمع ما سأقوله لك يا حاكم. ثمة سبب واحد يجب أن يجعلك تهتم بكوريا الشمالية".

"رائع أيها الحكيم، يا فيلسوف العصر. قل لي!"

"إن السبب يكمن في القوة الأمريكية المؤلفة من 38000 جندي على الحدود مباشرة". فالجزء الأكبر من فرقة المشاة الثانية في الولايات المتحدة كان متمركزاً هناك،

جنباً إلى جنب مع آلاف أخرى من عناصر الجيش، البحرية وسلاح الجو. "إذا لم يكن أي شيء مهماً، فإن هذا مهم. طلقة واحدة عبر الحدود فتخسرون نصف ذلك العدد من الناس على الفور. تخسرون 15000 أمريكياً في أي هجوم كيميائي، بيولوجي أو حتى عادي. في غمضة عين تكون الولايات المتحدة قد دخلت في حرب".

همهم بوش وقال: "ليت أولئك الأوغاد أطلعوني على الأمور بصراحة ووضوح. يُسمعونني كلاماً كثيراً، كلاماً من شأنه أن يشكل نصف كتاب، عن تاريخ كوريا الشمالية".

"هاك الآن جواباً آخر. هل تريد أن تكف عن الاهتمام بكوريا الشمالية؟" سأل بندر. تركزٌ بدلاً من الانجرار إلى أي نزاع في شرق آسيا.

"أنا لم أقل ذلك". أجابه بوش.

"ولكن إذا لم تكن تريد، فبادر إلى سحب تلك القوات من هناك. عندئذٍ يصبح النزاع محلياً. عندئذٍ يكون لديك الوقت كله لتقرر: "هل يتعين علي أن أتدخل؟ لا أتدخل؟ إلخ..".

في تلك اللحظة اقترب كولن باول.

"تعال يا كولن، قال بوش "بندر وأنا كنا موشكَيْن على اقتناص الثور، طيارا مقاتلتين يقومان باصطياد ثور". لم يأت على ذكر الموضوع.

"انتبه يا حاكم" قال بندر "ليس الجنرال باول أقل منا طيار مقاتلات. هو قادر متنا على قنص الثور".

تابع بندر حملة الـ 2000 الرئاسية كما لو كان مراسلاً سياسياً أو تاجر أخبار متفرغاً. كان معجباً بالتركيز والمنهج. والد المرشح وعد بالمجيء إلى مزرعة بندر الواقعة خارج لندن لصيد الحجل بعد الانتخاب. قال بوش الأب لبندر: "حين آتي لممارسة رياضة الصيد معك سنكون إما محتفلين بولدي في البيت الأبيض أو عاكفين على مواساة كل منا الآخر لأنه خسر المعركة".

أنفق بندر المعروف بهواياته وهواجسه الخاصة كميات هائلة من الوقت على دراسة نفسيات أفراد من البشر وطوَّرَ نظرية عن الدافع الكامن وراء طموح جورج دبليو بوش. أولاً، دبليو كان قد رفض الشخصية المحورية في صعود أبيه سياسياً إلى موقع الرئاسة:

جيمس ايه بيكر الثالث، عامل أبيه السياسي الأول ووزير خارجيته. برأي دبليو، لم يكون بيكر قد بذل ما يكفي من الجهد في حملة إعادة الانتخاب عام 1992، كان قد تخلى عن أبيه. وبارباره بوش رأت أن بيكر لم يهتم إلا بنفسه.

أما عندما ووجه دبليو بمعركة إعادة عد الأصوات في فلوريدا في 2000، فإنه سارع إلى ابتلاع كبريائه وتسمية بيكر رئيساً للعملية. هل ثمة من أدى لعبة الولد الكبير الخطرة أفضل من بيكر؟

قال بندر: "أظن أن بوش جاء إلى المنصب حاملاً رسالة. كثيرون يخلطون بينها وبين إيمانه - أعني إيمانه الديني. أعتقد أنه كان يحمل رسالة لا أدّرية. أرى أنه كان مقتنعاً بضرورة إبلاغ الرسالة وأنه الوحيد الذي سيتولى إبلاغها. وقد بدأت العملية بـ: ثمة ظلم وقد وقع على رجل طيب اسمه جورج هيربرت ووكر بوش، رجل كان بطلاً، خدم بلده، لم يرتكب أي خطأ". فأبوه كان طياراً فاز بوسام في الحرب العالمية الثانية، عضواً في الكونغرس، سفيراً في الأمم المتحدة، مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية، نائباً للرئيس. جميع الأشياء التي لم يفعلها دبليو. وبعد كل ذلك، كان أبوه، بوصفه رئيساً للجمهورية، قد خاض حرباً في 1991 لطرد صدام من الكويت. "وهو ينتصر" تابع بندر، "ولكنّ مهرجاً - حسب رأيه - متهرباً من الجندية، وإلخ... يهزمه. ليس ثمة أي عدالة".

شكّل انتصار كلنتون في 1992 حافزاً. "وهكذا فإن هذا الشاب الذي كان شاباً أهوج في بداية حياته ما لبث أن نضج بدءاً بعام 1992، ولكن مع تركيز على رسالة واحدة، مهمة يتيمة. ثمة ظلم. هناك أمر غير صحيح. سأتولى تصويبه".

بعد انتخاب الـ 2000، واصل بندر زيارة الرئيس بوش في البيت الأبيض على نحوٍ منتظم، وبقي على اتصال مع بوش الأب كل الوقت. ومن حين لآخر كان يرى الأب والابن معاً. كان ثمة ارتباط، نوع من العلاقة العاطفية الواضحة، ولكن مع قدرٍ من النأي بالنفس، قدر من ترك المسافة على نحوٍ غير قابل للتفسير. مرات كثيرة سمع بندر من بوش الأب تعليقات على السياسات والخطط التي يعتمدها ابنه.

سأله بندر: "لماذا لا تتصل به بشأنها؟"

أجاب بوش الأب: "أخذت دوري. جاء دوره الآن. ليس مطلوباً مني إلا أن أبقى بعيداً عن المسرح. على امتداد ثمانية أعوام لم أعلق مرة واحدة على كلنتون. لن أدلي

بأي تعليق فيما يخص هذا الرئيس، ليس التزاماً بالمبدأ وحسب بل لتمكينه من أن يكون هو نفسه".

في مكتب منزوٍ صغير على الطبقة الخامسة من شركته الاستشارية الدولية الواقعة على بعد بضع عشرات من الأمتار من البيت الأبيض، كان برنت سكوكروفت، أحد القليلين الذين هم على علاقة حميمة مع كل من الرئيس السابق بوش وبندر، يتابع الرئاسة الشابة لنجل بوش بعواطف ملتبسة. وسكوكروفت هذا، وهو مورموني ضئيل الجسم حائز على الدكتوراه في العلاقات الدولية وخادم في الجيش مدة 29 سنة، جنرال بثلاثة نجوم في سلاح الجو، كان قد شغل منصب مستشار الأمن القومي لدى كل من الرئيسين جيرالد فورد وجورج اتش دبليو بوش.

كان سكوكروفت والرئيس بوش الأب متجايلين، لم يفصل بين ميلاديهما سوى تسعة أشهر. وكانا موحدين روحياً على الصعيد السياسي إلى درجة أن بوش كان، بدلاً من أن يكتب مذكرات رئاسية، قد تشارك مع سكوكروفت في تأليف كتاب من 566 صفحة في 1998 بعنوان **عالم جرى تحويله**. كان الكتاب أشبه بالمذكرات، أحد "كثر الكتب الصادرة عن أي رئاسة قرن عشرينية غرابة. كتب بوش وسكوكروفت أقساماً متعاقبة متنافسة مع نتف عَرَضية سَرْدية مدسوسة بين الأقسام. أظهر الكتاب مدى انغماس الرجلين في أحداث رئاسة بوش من 1989 إلى 1992، بما في ذلك قصص داخلية كاشفة وإن مشذبة بعناية لكل من حدثي انهيار الاتحاد السوفيتي وحرب الخليج.

لم يكن سكوكروفت أقل تواصلاً مع بوش الأب من بندر. كان يعلم أن الأب لم يكن يريد أن يبدو واقفاً خلف ابنه، قلقاً عليه. وبرأي سكوكروفت فإن أي تلميح إلى وجود يد خفية لبوش الأب في إدارة الابن كان من شأنه أن يسيء إلى صورة الابن ويؤدي إلى تقليص احترام رئاسته ودعمها، بل وإلى تقويضها.

غير أن سكوكروفت كان أيضاً يعلم أن الأمر كان شخصياً جداً – قصة أنموذجية منطوية على أكثر من نصف قرن من فيض مهذب ونصف مهذب من التوترات، المحبة، البهجة، التنافسات والخيبات بين الأب والابن. كان سكوكروفت يعرف، آخر المطاف، أن هناك أباً كان قد فعل كل شيء – وفعله على نحوٍ ممتاز بنظره.

بأفضل ما كان سكوكروفت يستطيع أن يقدّر، لم يكن جورج دبليو بوش يعرف من يكون إلى أن بلغ الـ 45 من العمر. وهو الآن رئيس للجمهورية؟ مدهش حقاً. والآن كان

سكوكروفت على يقين بأن الأب لم يكن يريد أن يخدش ثقة الابن الذاتية. فقد منح هو وبا_باره العالم بل رئيساً للولايات المتحدة لا ابناً فقط. كان الأب شديد الرغبة المشوبة باليأس، وبالعاطفة في أن ينجح. وأفضل طرق مساعدته تمثلت بالابتعاد عن طريقه.

موجهاً كلامه إلى كبير استراتيجييه السياسيين، كارل روف، قال جورج دبليو بوش فور قيام المحكمة العليا بإعلان فوزه في الثاني عشر من كانون الأول/ديسمبر 2000: "أريد خطة عمل جاهزة لحظَة أرفع يدي عن الإنجيل. رأيت ما جرى لأبي العجوز، التي أحبه أكثر من الحياة نفسها، لأن تولى المنصب ولم يكن متوفراً على خطة". أضاف أنه كان قد تابع كلنتون منخرطاً بسرعة في سجالات اللحظة حول المثليين (المثواذ جنسياً) في الجيش وتعيينات كبار موظفي الإدارة. أفاد بوش بأنه كان يرى أن يركز على بنود برنامجية كبيرة.

وقال بوش لروف: "الوقت حليفُنا في بداية الإدارة. غير أنه لن يلبث، بعد مرحلة معينة، أن ينقلب علينا وضدنا". كان يريد زخماً، وكان يريد التركيز والجدل السياسي في الكونغرس والبلاد منصبين على أجندته، برنامجه هو. "إذن لابد من خطة".

كان بوش يعرف روف منذ 28 سنة. وكما بيّن أكبر معارفهما السياسيين التكساسيين فإن "كارل روف كان ذا شخصية انفصامية بعض الشيء من حيث إنه كان يستطيع أن يكون صديقك العزيز، المخلص - ولا يتردد في حز رقبتك في اليوم التالي إذا أحس بأنك قد تشكل تهديداً له". أضاف الصديق القديم التكساسي أن روف قد يكون فصامياً وهو لم يستطع أن يتحرر من هذا المرض بالفعل في أي وقت. غير أن بوش كان يعرف أن ذلك المرض الفصامي، البارانويا، - ولاسيما طبعته الروفية - كان مفيداً في السياسة.

حين كان بوش قد قرر خوض المعركة الرئاسية، بادر إلى مطالبة روف بالتحرر من شركة كارل روف وشركاه، مؤسسته الاستشارية البريدية والسياسية المباشرة قائلاً: "إذا كنت تريد أن تصبح "من رجالي"، فإن عليك أن تبيع مؤسستك وتتفرغ لي كلياً. إذا كنت راغباً في أن تكون "من رجالي" فإن عليك أن تكون "تابعاً لي" أنا مئة بالمئة". كانت لروف آرا- كبيرة وكان راغباً في التحكم بأشياء كثيرة، وقد تعين على بوش أن يقلّم جناحي طموحاته، بالحسنى حيناً وبقدرٍ غير قليل من الإكراه والقسر أحياناً.

بات بوش الآن راغباً في التأكد من أن "تابعه" كان بالفعل في صفه هو في زحمة البيت الأبيض. لم يُكلَّف روف بمهام محددة ومسؤوليات معينة، بل مُنح، بدلاً من ذلك،

ترخيصاً مفتوحاً للعناية بأمرين اثنين: صحة بوش السياسية المباشرة في ذلك اليوم. ذلك الأسبوع، ذلك الشهر، أولاً؛ وصحة أو عافية بوش طويلة الأمد المؤهّلة له لإعادة الانتخاب، ثانياً.

وابن الخمسين روف استقر في مكتب كانت هيلاري كلنتون تستخدمه في الجناح الغربي من البيت الأبيض على الطبقة الثانية. كان يرى احتمال إعادة انتخاب بوش ثانيةً متوقفاً على تحقق فترة أولى ناجحة، وكان ذلك يعني في الأشهر الأولى من رئاسة بوش أمراً واحداً: خفضاً للضرائب، عموداً فقرياً لبرنامج بوش في السياسة الداخلية. وفي حوار خلال التمهيديات الجمهورية كان بوش قد أعلن: "لسنا بصدد "لا ضرائب جديدة" وحسب بل نحن بصدد "تخفيضات ضريبية" فليعنّي الرب، إذن،" مقتبساً العهد الانتخابي الذي كان أبوه قد قطعه ثم ما لبث أن تنكر له.

وهكذا فإن روف اقتحم موضوع خفض الضرائب الذي اعتقد بأن من شأنه أن الرب يحدد معالم رئاسة بوش. أما في السياسة الخارجية فلم يكن بوش، على النقيض من ذلك، وعلى الرغم من جميع الدروس والمواعظ التي تم إغراقه في بحورها، متوفراً على أي خطة بالنسبة إلى هذه السياسة. لم تكن لديه أي قناعات من قبيل "فليعنّي الرب!".

3

في فترته البنتاغونية الأولى كان رمسفلد قد راكم قدراً من الازدراء لأجزاء كبيرة من المنظومة التي كان سيتولى الإشراف عليها من جديد. كان قد وجد البنتاغون والمجمّع العسكري الأمريكي الواسع غير قابلين للإدارة والضبط الناجحين. ذات سهرة وعلى مائدة عشاء في منزلي بعد انقضاء أكثر من عشر سنوات على خروجه من البنتاغون، قال إن تولي المرء لمنصب الوزارة "أشبه بحمل جهاز كهربائي بيد وفيش كهربائي باليد الأخرى والجري من مكان إلى آخر بحثاً عن مأخذ تدسه فيه". صورة علقت بمخيلتي - رمسفلد مندفع بقوة يجري من مكان إلى آخر في جناح هـ من البنتاغون، رجل مزوّد بجهاز دائب على البحث عن مأخذ كهربائي مراوغ، يحاول وضع الأمور في نصابها ويشعر بأن أحداً من الجنرالات والأميرالات لا يبادر إلى الإمساك بيده.

هذه المرة أراد أن يتحكم بالموقف. لن تتمكن الأحداث الخارجية من تشتيت ذهنه. سائر القوات المسلحة - الجيش، البحرية، المارينز والقوات الجوية - ليست إلا جهات ذات طلبات خاصة، ضيقة الأفق. ومع أنه كان عضواً سابقاً في الكونغرس، بقي ينظر إلى هذه المؤسسة على أنها ضيقة، غير ذات جدوى، غارقة في الأعراف والبروتوكولات. الضيوف الأجانب كانوا يستهلكون أوقاتاً أطول مما ينبغي، وشعائر الاجتماعات وطقوسها لا تفيد إلا في إحداث الألم في المؤخرة. لا، لكل ذلك. لديه أشياء كبيرة ينشغل بها. لابد من التركيز. عازم هو على تغيير الجيش الأمريكي كله، تحويله إلى آلة قتالية أكثر رشاقة، أكفأ، أسرع وأشد فتكاً. لم ير ذلك مهماً بالنسبة إلى الجيش فقط؛ بل وحده بالغ الأهمية بالنسبة إلى مصداقية الولايات المتحدة أيضاً.

بعيد استقرار رمسفلد في مكتبه، طلب رئيس هيئة الأركان المشتركة، جنرال الجيش هنري إتش "هيو" شلتون، الذي كان الرئيس كلنتون قد عينه في هذا المنصب العسكري الأعلى في الولايات المتحدة، موعداً لاجتماع خاص.

قال شلتون: "ما إن أدى الرئيس بوش قسم المنصب، حتى انتقلت التزاماتي مباشرةً إليه بوصفه قائداً أعلى. أريد أن أُعد واحداً من فريقكم".

كان شلتون ذو الأعوام التسعة والخمسين مظلياً خدم في الجيش مدة 37 سنة، بما في ذلك فترتان في فيتنام. وشلتون هذا طويل القامة، الودود، البعيد عن مثقفي الجيش، كان ذا أسلوب مباشر. كان يدرك قيمة الولاء السياسي، وواقفاً على مدى حدة الصراع في انتخابات الـ 2000 الرئاسية. بادر إلى مسالمة الإدارة الجديدة.

في ظل وزراء دفاع حديثين على امتداد الأعوام الخمسة عشر الأخيرة، كان رئيس الأركان يتولى مهمة توفير قنوات الارتباط والتواصل بين الوزير والقادة الميدانيين. تمثل الأنموذج بمثال حرب الخليج في 1991، حيث كان رئيس هيئة الأركان كولن باول قناة المعلومات والأوامر الرئيسة بين وزير الدفاع تشيني والجنرال إتش نورمان شوارتزكوف، قائد عملية عاصفة الصحراء.

كان رئيس هيئة الأركان متمتعاً بسلطة ونفوذ محتملين بوصفه وسيطاً ومستشاراً، غير أنه لم يكن حلقة في سلسلة القيادة.

سأله رمسفلد: "ما هي واجباتك بالتحديد؟" منذ فترته الأولى وزيراً للدفاع في إدارة فورد كان تشريع إصلاح غولدووتر - نيكولز لعام 1986 قد عزز دور رئيس الأركان، أقله، على الورق.

مورداً صلاحياته الواردة في البند العاشر من قانون غولدووتر - نيكولز البالغ 15 عاماً من العمر في شرعة الولايات المتحدة، أجاب الجنرال شلتون قائلاً: "أنا المستشار العسكري الرئيس لرئيس الجمهورية، لك أنت ولمجلس الأمن القومي".

قاطعه رمسفلد "لا، ليس صحيحاً. انس مجلس الأمن القومي".

"بل صحيح سيادة الوزير؛ إن القانون صريح وواضح" قال شلتون بهدوء.

"باستثناء العاملين في جهاز مجلس الأمن القومي" قال رمسفلد. كان قد وجد العاملين في مجلس الأمن القومي في إدارة فورد مزعجين، نافخين أنفسهم كما لو كانوا ينطقون باسم رئيس الجمهورية.

وافقه شلتون على استثناء الجهاز. غير أنه كان يتعين عليه بوصفه المستشار العسكري الأول لمجلس الأمن القومي أن يتعامل مع أعضاء مجلس الأمن القومي الرئيسين: رئيس الجمهورية، نائب رئيس الجمهورية، وزير الخارجية، وزير الدفاع، مستشار رئيس الجمهورية لشؤون الأمن القومي ومدير وكالة الاستخبارات المركزية.

ومع أن القانون قضى بحصر دور رئيس الأركان بالمشورة، الاتصالات والإشراف فإنه كان متوفراً على كرسي في غرفة عمليات البيت الأبيض لدى مناقشة أمور التخطيط والسياسة والحرب.

رأى رمسفلد نوعاً من الخلل المزعج في نظام بتدخل في التسلسل القيادي الصارم من رئيس بوصفه قائداً أعلى إليه بوصفه وزيراً للدفاع ومن ثم إلى القادة الميدانيين في القوات المسلحة المنتشرين في أرجاء العالم المختلفة من المحيط الهادي إلى الشرق الأوسط.

بعد أسبوع واحد قام رمسفلد بإبلاغ شلتون عن فكرة تقضي بتقليص حجم الجهاز. كان كولن باول قد حوّل الأركان المشتركة إلى مركز قوة فيه مئات من الضباط المتوسطين والكبار الطموحين. كان باول يطلق على المركز اسم "أركان الحركة" بوصفه مركزاً منظماً ومكرساً لإنجاز المهمات المطلوبة. ومع أن الإدارات كانت خاضعة لرئاسة جنرالات وأميرالات بثلاثة أو أربعة نجوم، فإن هيئة الأركان المشتركة كانت لا تزال تُعد الهيئة الأقوى والأفعل في واشنطن.

"إنها أكبر مما ينبغي" قال رمسفلد. أراد من شلتون أن يقلّمها، يختصرها، يتخلص من أولئك المكلفين بالعلاقات العامة، بالارتباط التشريعي وبالقضايا الحقوقية نيابة عن رئيس هيئة الأركان. كان بوسع شلتون استخدام جهاز رمسفلد المدني لإنجاز تلك المهمات.

رد شلتون: "مطلوب مني، سيادة الوزير، أن أقدم مشورة عسكرية مستقلة". أشار إلى أن عدد العاملين عنده أقل من 30 عنصراً في جميع تلك الأقسام في حين أن لدى رمسفلد ما يزيد على الـ 200. ربما كان القطاع المدني هو الأجدر بالتقليص؟ برأي شلتون.

قرر رمسفلد أن يهمل الموضوع مؤقتاً.

كان شلتون قلقاً بشأن موضوع الثقة بينه وبين الوزير الجديد. قبل تثبيته في منصبه كان رمسفلد قد تلقى تحذيراً شديد اللهجة. ثمة نقيب بحري متقاعد كان قد عمل لدى جنرال سلاح الجو جورج اس براون، رئيس هيئة الأركان المشتركة خلال فترة تولي رمسفلد الأولى لوزارة الدفاع، كان قد أرسل إليه (إلى شلتون) خطاباً شخصياً. كان خطاب إدانة. زعم النقيب أن رمسفلد غير جدير بالثقة وهو يحتقر العسكريين الذين يرتدون الزي الرسمي.

جاء في الخطاب: "لن تستمتع بهذه العلاقة. سيتحكم بكل شيء". قام شلتون بإطلاع عدد من كبار الجنرالات والأميرلات على الرسالة.

ملاحظاً أن الفترة الباقية له رئيساً للأركان لم تكن تتجاوز التسعة أشهر، علّق شلتون: "يا إلهي! أرجو ألا يكون ذلك صحيحاً. لا أريد أن أقضي عامي الأخير في هذا النوع من الأجواء".

لدى ضباط عسكريين كبار متقاعدين آخرين كانت قصص مذهلة عن التعرض للتوبيخ والتعنيف من قبل رمسفلد. فالأميرال جيمس إل هولووي، رئيس العمليات البحرية من 1974 إلى 1978، قال إن رمسفلد كان قد مسح الأرض به توبيخاً أمام 40 شخصاً من كبار الضباط والموظفين المدنيين. كان رمسفلد قلقاً بشأن إحدى الشهادات أمام الكونغرس وكان هولووي قد حاول التفسير.

تدخل رمسفلد، حسب رواية هولووي، قائلاً: "اخرس! لا أريد أي أعذار. أنت مطرود ولن تجد ما يكفي من الوقت للملمة حوائجك من مكتبك إذا لم تتم متابعة هذا الموضوع".

توجس شلتون من قيام رمسفلد ببناء مجلس صناعة القرار المؤلف من عدد من المساعدين والمستشارين الخاصين داخل مكتب وزير الدفاع. بدأ المجلس يتحول إلى قلعة حقيقية، قلعة عامرة بحشد من الأصدقاء القدامى والضباط المتقاعدين من أسلحة القوات المسلحة المختلفة. أولاً كان ثمة ستفن كامبون، مثقف دفاعي صوبي القامة سبق له أن كان منخرطاً بعمق في فعاليات لجان رمسفلد الخاصة بالفضاء والصواريخ الدفاعية في تسعينيات القرن العشرين. سُمي كامبون هذا مساعداً مدنياً أول لرمسفلد. ثانياً، كان هناك مارتن هوفمان الذي كان شريك رمسفلد في الغرفة وزميل صفه في برنستون عام 1954، والذي كان وزيراً للجيش خلال فترة رمسفلد الأولى في البنتاغون. كان الرجلان صديقين حميمين منذ نحو 50 سنة. ثالثاً، كان هناك إم ستاسر هولكومب، نائب أميرال بحري متقاعد كان مساعد رمسفلد العسكري في سبعينيات القرن العشرين.

أما رابع أعضاء مجلس الطبخ وربما أكثرهم أهمية فكان ستيف هيربتس، وهو محامٍ يبلغ التاسعة والخمسين من العمر وصديق قديم لرمسفلد منذ عام 1967. كان هيربتس هذا أحد مساعدي رمسفلد الخاصين المدنيين في فترته البنتاغونية الأولى، وقد تولى مهمة تنظيم الدفاع واختيار عناصره لكل من كاسبار واينبرغر في 1981

وتشيني في 1989 حين كانا وزيرين للدفاع. أصبح هيريتس أحد كبار التنفيذيين في شركة سيغرام، تلك المؤسسة العملاقة لإنتاج المشروبات الكحولية والاتجار بها. ربما لم يكن أحد يضاهيه دواماً أو تلازماً مع رمسفلد حول قضايا أساسية على صعيد إدارة الجيش. قام رمسفلد بتعيين هيريتس مستشاراً متخصصاً بتحليل المشكلات الراهنة، واضطلع بمهام ردم الثغرات الطارئة متولياً بطريقة ما وظائف شبيهة بتلك التي يتولاها كارل روف في خدمة الرئيس بوش.

كان هيريتس، الذي كان أيضاً حركياً مدافعاً عن حقوق الشواذ ومتبرعاً طارئاً لمرشحين ديمقراطيين - وبالتالي شخصية شديدة الغرابة بين خبراء الدفاع الجمهوريين - معروفاً بقدرته الفائقة على التشريح الدقيق، الاستفزازي، اللاذع للملاكات والمؤسسات. كان رمسفلد معجباً بأسلوبه ومهارته في اختراق الضباب الاعتيادي لأعمال البنتاغون الورقية وتحليلاته القائمة على المستويات الدنيا من القواسم المشتركة.

كان رمسفلد وكامبون عاكفين على البحث عن مساعد عسكري أول يشغل إحدى المراتب المحورية في فريق رمسفلد. من قبل كان المنصب مشغولاً بجنرال أو أميرال ثلاثة نجوم. عبر رمسفلد عن رغبته في تسليط الضوء على ما يعنيه التقليص أو الاختزال. بدا جهاز البنتاغون البيروقراطي متورماً، وظل الجيش دائباً على تعيين ضباط مراتب أعلى فأعلى في المناصب المفتاحية، وصولاً إلى نوع من التضخم في الرتب. اعترض رمسفلد وأراد أن يهبط درجتين كاملتين ليس فقط إلى ضابط نجمتين بل إلى ضابط نجمة واحدة - إلى مستوى رائد أو مقدم بحري.

فكر الصديقان، رمسفلد وكامبون، بعميد بحري يدعى جي جي كوين سبق له أن تولى رئاسة قيادة الفضاء البحري وأدلى بشهادة بالغة الصراحة أمام لجنة رمسفلد الفضائية في العام السابق. إن كوين، وهو خريج الأكاديمية البحرية في 1974، كان قد شهد سراً بأن برنامج الفضاء البحري الصغير يجب أن يُزاد على نحوٍ مثالي لمساعدة القيادات الميدانية. ولو تم التوسع في 'البرنامج لأدى الأمر ربما إلى وجوب خروج البحرية من مجال الفضاء كلياً. لم يسبق لأي قائد عسكري أن اقترح وضع حد لقيادته، يا للغرابة!

بادر رمسفلد وهوفمان إلى استدعاء كوين للتحاور معه. كان كوين، ابن الثامنة والأربعين من العمر، طويل لقامة، كابتن فريق البيزبول في الأكاديمية البحرية. سارع رمسفلد، وهو طيار بحري سابق، إلى اقتحام عالم اختصاص كوين.

كان كوين ملاحاً بحرياً وإن لم يكن طياراً. سبق له أن طار وهو في المقعد الخلفي لمقاتلة الإف – 14 النفاثة بوصفه مفتش الرادار أولاً وموجه رامي المدفع الرشاش فيما بعد. عمل في البيت الأبيض معاوناً عسكرياً للرئيس ريغان مدة 19 شهراً، وللرئيس بوش الأب مدة 5 أشهر، حاملاً ما كان يعرف باسم كرة القدم أو جملة رموز ومفاتيح الحرب النووية.

طرح رمسفلد سؤالاً على كوين عن خدمته ضابط قيادة سرب طائرات إف – 14 على الليو إس اس رينجر في حرب الخليج عام 1991. قام كوين بوصف 51 مهمة مرافقة قصف واستطلاع تصويري خلال 43 يوماً. وبعد الحرب التحق بمدرسة القوة النووية الشاقة ذات العشرين شهراً، تلك المدرسة التي أسسها المرحوم الأميرال هيمان ريكوفر، تمهيداً لتولي قيادة حاملة طائرت عاملة بالطاقة النووية.

سأله رمسفلد عن المدة التي أمضاها ضابط قيادة لليو إس إس **آبراهام لنكولن**.

رد كوين قائلاً: "إنها أفضل فترات حياتي". كان يتولى قيادة طاقم مؤلف من نحو 5000 عنصر وما قيمته نحو 12 ملياراً من الدولارات من السفن والمعدات. كانت القيادة في عرض البحر قمة النشوة والسعادة بالنسبة إلى أي ضابط بحري، كما كان رمسفلد متأكداً. أضاف كوين: "ذلك هو ما نعيش من أجله".

انقض هارتي هوفمان على قطعة ورق بيضاء وطلب من كوين أن يكتب شيئاً ليرى ما إذا كان رمسفلد سيتمكن من قراءة خطه.

كتب كوين العبارة التالية: "أنا راغب فعلاً في هذه الوظيفة، يا سيادة الوزير!"

علق رمسفلد ضاحكاً ضحكة خفيفة: "أستطيع قراءة ذلك". في غضون أسبوعين كان كوين جالساً في مكتب صغير ملاصق لمكتب رمسفلد تحت صورة مؤطرة لعدد من معاوني جنرالات الحرب الأهلية المتحلقين ممسكين بأرسان جياد رؤسائهم. وهذه الصورة المعروفة باسم **الممسكون بأرسان الجياد**، تحمل تواقيع المساعدين العسكريين الأول لوزير الدفاع السابقين، بين التواقيع كان توقيع كولن باول الذي شغل المنصب عند وزير الدفاع واينبرغر وكان الآن وزير بوش للخارجية.

يوم الجمعة الواقع في 16 شباط/فبراير، يوم رمسفلد الـ 21 في الوزارة، قامت عشرات الطائرات الأمريكية والبريطانية بقصف 20 محطة رادار داخل العراق، تعزيزاً

لمنطقتي الحَظْر الجوي اللتين كانت الأمم المتحدة قد فرضتهما بعد حرب الخليج في 1991. الغارات هذه كانت الضربات الأكبر منذ عامين. جنرال من الأركان العامة أبلغ البيت الأبيض عن القصف، إلا أن رمسفلد لم يكن قد أُطلع على ما كان يجري لحظة بلحظة فشعر بقدرٍ غير قليل من الاستياء وظهر ذلك على وجهه الشاحب. المعلومات الصادرة عن القادة كانت تُنقل إليه عبر شلتون مما عنى أن مدة تتراوح بين 6 و10 ساعات كانت تمر قبل أن يقف على حقيقة ما حدث.

قال رمسفلد: "أنا وزير الدفاع. أشكل حلقة في سلسلة القيادة". كان هو – لا الجنرالات، لا الأركان العامة – المسؤول عن التعامل مع البيت الأبيض والرئيس حول الأمر العملياتية.

طالب رمسفلد شلتون بعملية إعادة بناء تفصيلية للآلية. لماذا كان قد تم اختيار تلك الأهداف؟ من الذي كان قد أقرها؟ من الذي كان قد تحدث عنها بإيجاز؟ من عرف؟ من كان يفكر؟ كانت الهجمات على محطات رادار عراقية بعيدة المدى منصوبة خارج بغداد. دوي الانفجارات سُمع في العاصمة العراقية. إذن، ثمة تغطية إعلامية للحدث من قبل السي إن إن. وقد بدا الأمر كما لو كان قصفاً جوياً لبغداد، لافتاً أنظار العالم. للحظة كان قد بدا كما لو أن إدارة بوش الجديدة قد بادرت إلى شن حرب على صد م حسين في شهرها الأول.

شعر رمسفلد بأنه تعرض للتضليل، إذ لم يتم تنبيهه، لم يجر إطلاعه على تفاصيل القصة سلفاً.

رأى نائب الأميرال سكوت ايه فراي، مدير الأركان ويد شلتون اليمنى، أن رمسفلد كان على حق. كان يتعين جعل الأمور أكثر وضوحاً. كانوا قد أخفقوا في التوقع وانتهكوا قاعدة عدم المباغتة – إياك ومفاجأة الزعيم!

كان فراي، ابن الواحدة والخمسين، خريج الأكاديمية البحرية في 1971، أحد أكثر ضباط سلاح البحرية تألقاً ووعداً. وهو لا يزال ضابطاً صغيراً كان قد قرأ عن مآثر بعض كبار الأميرالات، وكان قد حلم بأن يصبح مديراً للأركان المشتركة. برأيه كان ذلك أعظم المناصب العسكرية في الولايات المتحدة بالنسبة إلى أي جنرال بثلاث نجوم. سبق له أن خدم مساعداً تنفيذياً لرئيس العمليات البحرية، نائباً في إدارة الخطط والسياسة لدى الأركان المشتركة (جي – 5)، ثم ارتقى إلى قيادة أحد المجمعات القتالية

الجوية - مجمع يو اس اس آيزنهاور، زورقين حربيين، مدمرتين وغواصتين - العمود الفقري لسلاح البحرية. وبعد ذلك ما نبث أن عُين مديراً للعمليات (جي - 3)، ليصل أخيراً إلى المنصب الأكثر إسالة للعاب، منصب المدير.

أدرك فراي أن موقف رمسفلد كان قائماً على عدم الثقة. لذا فقد تعين عليهم (أعضاء هيئة الأركان) أن يبرهنوا على أنهم جديرون بالثقة. ذات يوم نقل سلايدين مصنَّفين سريين عن مسألة عملياتية ثانوية إلى مكتب رمسفلد. كان يستعرضهما مع ستيف كامبون حين دخل رمسفلد.

سأل الأخير: "لماذا هما سريان؟"

تردد فراي. كان التصنيف على أدنى المستويات من السرية. أكثر الأمور التي كانت تصل إلى الوزير كانت على مستويات أعلى بكثير من السرية - مميزة بعبارات سري، سري للغاية، برامج خاصة، إدارة معينة، تداول محدود لمعلومات حساسة. سرعان ما انخرط الثلاثة: رمسفلد، كامبون وفراي في نقاش حول التصنيف والسرية. أقر فراي بعدم ضرورة تصنيف هذين السلايدين على الإطلاق في الواقع. أراد أن يعيد النظر في المضمون.

اعترض رمسفلد. "من فضلك انزل وهات سلايدين جديدين غير مصنفين كما ينبغي"

تحدث فراي مع شلتون الدائب على الشكوى من سيل أسئلة رمسفلد المتواصل: لماذا كان لدى رئيس الأركان مساعد خاص يسافر مع وزير الخارجية باول في سفراته إلى الخارج؟ ما الذي كان ذلك كله يعنيه؟ كان رمسفلد يريد أن يعرف. من الذي يرفع تقاريره إليه؟ كيف كان مسار تدفق المعلومات؟ متى كان هو، رمسفلد، وزير الدفاع، سيعرف تفاصيل ما كان يفعله باول؟ مرةً أخرى أريد أن أسألك: "ما الداعي لتوفرك على محامٍ؟"

درج رمسفلد على إرسال ملاحظات قصيرة إلى مختلف أرجاء المبنى، عُرفت باسم "ندف الثلج" متضمنة أسئلة، ملتمسة تفصيلاً، طالبة إعادة بناء قصص معينة بدت غامضة بالنسبة إليه. كان قد طور نظام ندف الثلج هذا في عهد إدارة نكسون حين كان يتولى قيادة مكتب الفرصة الاقتصادية. ومع أنها لم تكن موقعة فإن الجميع كانوا يدركون أن ندف الثلج كانت أوامر أو أسئلة صادرة عن الزعيم، عن القائد. غير أن تسرب إحدى ندف الثلج كان يوفر فرصة للإنكار - لا توقيع، لا بصمات واضحة. كان

شديد الاعتزاز بأداة إدارته الجديدة. وحين تولى رمسفلد منصب السفير لدى الناتو من 1973 إلى 1974، كانت مذكراته هي الورقات الصفراء التي عُرفت باسم "المصائب الصفراء". أما الآن فقد عادت تُكتب على قصاصات بيضاء مما أعاد إحياء تسمية "ندف الثلج".

كان رمسفلد يخربش ملاحظاته أو يمليها، ثم تقوم مساعدته الموثوقة ديلوني هنري بنسخها. صار العميد البحري جي جي كوين، المساعد العسكري الجديد، المسؤول عن حفظ ندف الثلج، وقد كانت عموماً على أنواع ثلاثة: إدارية ("اتصل ورتب لقاء غداء مع رئيس الاحتياطي الاتحادي آلان غرينسبان" – صديق قديم لرمسفلد منذ أيام فورد)، أفكار بسيطة، أو تأملات شخصية، واتصالات لطلب المعلومات أو التحرك. بعضها كان موسعاً تماماً وطالباً أشياء كثيرة. كان كوين يوصلها، باليد في الغالب إذا كانت عاجلة ومهمة، وكان رمسفلد يحتفظ بنسخ عن ندف الثلج في ملفات على مكتبه. كان أمامه مصنف لشلتون، آخر لكوين، ثالث لكامبون، وأخرى لكبار معاونيه.

لاحقاً قال كوين في إحدى المقابلات: "كانت طريقة بسيطة، ناجحة تمكنه من متابعة من سبق له أن طلبه وما أراد إنجازه. طريقة جعلته قادراً على تطويق هذا التنين العملاق الذي يحمل اسم المؤسسة العسكرية الأمريكية بذراعيه".

كان رمسفلد يتدخل في شؤون الجميع. ما من أحد كان محصناً. كثيرون في البنتاغون كانوا يرون ندف الثلج مصدر إزعاج. آخرون وجدوها تطفلاً وصَغاراً. فريق ثالث عَدَّها أمراً لا يطاق.

قام الأميرال فراي بإبلاغ الأركان المشتركة بأن هذه كانت فرصة لمعاينة ما كانوا يقومون به من عمل ولماذا. من شأن المحاسبة الذاتية وعملية الاستبطان أن تكونا مفيدتين، من شأنهما أن تخدما مصلحة الأركان المشتركة. قال الأميرال: "نحن بحاجة إلى أن نفعل هذا. سننجح في إنجازه. سنفوز بثقته. سيشعر بالارتياح معنا، سوف يطمئن إلينا".

في ظل النظام القديم، كما كان يتم في عهد وزير الدفاع وليم اس كوهن والجنرال شلتون، حين كان يقع حدث مهم – تصادم سفينتين، انتهاك منطقة الحظر الجوي في العراق، أو حالة اندلاع حرب قصوى – كان الجنرال أو الأميرال المناوب في مركز القيادة العسكرية القومي (NMCC)، الذي كان جزءاً من الأركان المشتركة ومستنفراً على مدار

الساعة، يتصل بشلتون. تساءل رمسفلد عن عدم الاتصال به هو أولاً، بدلاً من شلتون. فهو - رمسفلد - الذي يحتل الموقع في التسلسل القيادي، وهو الذي يرفع التقارير إلى الرئيس. أثار رمسفلد هذه التساؤلات أمام شلتون. رد الأخير أنه كثيراً ما يحصل على الأجوبة من الجنرال أو الأميرال المناوب كان يتعين عليه أن يتوقع أسئلة الوزير فيعمل على التزود بالأجوبة المناسبة للرد على اتصالات رمسفلد.

لم يوافق رمسفلد على الطريقة. أراد أن يكون أول من يعلم. ماذا لو كان الأمر خطيراً وتعين عليه أن يتصل بالرئيس؟ نظراً لأن مركز القيادة كان يتولى مراقبة العالم، فإن الضابط المناوب كان يتصل بشلتون دورياً وعلى نحو منتظم. طلب رمسفلد تعديل التوقيت - متى يتم الاتصال بشلتون، متى يتم الاتصال برمسفلد، ما نوع المعلومات المقدمة لكل منهما، وتفسير أسباب التأخيرات وأشكال الخلل في التقارير. كان ذلك أمراً شبه يومي. أتى رمسفلد بأميرال متقاعد آخر لوضع دراسة لواقع مركز القيادة العسكرية القومي. وبوصفه مشرفاً على المركز من جهة وعلى عمل الضباط المناوبين من جهة ثانية، كان فراي في الوسط.

يوم الخميس الواقع في 15 آذار/مارس 2001، اليوم الثالث والخمسين لرئاسة بوش، قام الأمير بندر بزيارة المكتب البيضوي مصطحباً مرافقه الوفي رحاب مسعود. كوندوليزا رايس التي كانت قد أصبحت مستشارة بوش للأمن القومي حضرت اللقاء. من غير المألوف إلى حدٍّ كبير أن يكون أي سفير متمتعاً بما يتمتع به بندر من القدرة على التواصل المباشر مع الرئيس.

شكا بندر من ملاحظة صدرت عن وزير الخارجية في شهادة له أمام الكونغرس قبل أسبوع. قيل إن الولايات المتحدة عازمة على نقل سفارتها من تل أبيب إلى القدس، وعلى لسان باول. وقد كان ذلك مثيراً للغضب لأن العرب يرون أن جزءاً من القدس فلسطيني.

رد بوش مؤكداً أنه يعرف مدى حساسية القدس بالنسبة إلى السعوديين. ربما كان باول قد أخطأ في التعبير.

في رسالة من ولي العهد، القائد الفعلي للعربية السعودية، قال بندر إن التقدم في عملية السلام بين الفلسطينيين وإسرائيل، التي انتخبت آرييل شارون قائداً جديداً لها، كان حاسماً لبناء تحالف يضم المعتدلين العرب للضغط على صدام حسين. سأل عن

الفترة التي ستستمر فيها عملية فرض مناطق حظر التحليق الجوي. سنتان؟ خمس سنوات؟ عشر سنوات؟ وأضاف "إن هذا يكلفنا عسكرياً، مالياً ولكن سياسياً وهذا أكثر أهمية بما لا يقاس. وهو لا يلحق أي أذى بصدام حسين".

بدا بوش موافقاً. قال الرئيس: "إذا تمت المبادرة إلى أي عملية عسكرية فإن من الضروري أن تكون حاسمة. الحسم هو الذي يضع حداً للقضية. المعارضة العراقية غير مجدية وعديمة الفعالية". ناقشوا مدى صعوبة التحرك الخفي للإطاحة بصدام. عبر الرئيس عن القلق إزاء الزيادات الحاصلة في أسعار النفط، وهو أمر يؤثر فيه السعوديون بقوة. أفاد برغبته في لقاء بندر أقله مرة في الشهر. عبر عن رغبته في الكلام الصادق.

أحس بندر بالنشوة. أرسل خطاباً سرياً إلى ولي العهد أبلغه فيه عن وجود "مؤشرات إيجابية كثيرة فيما يخص العلاقات والقضايا ذات الاهتمام المشترك بالنسبة إلى البلدين. صفتا الولاء والصدق قضيتان حساستان بالنسبة إلى هذا الرئيس. من المهم أن نراهن على هذا الرجل، بطريقة إيجابية جداً".

كان رمسفلد يحاول تحديد المهمة المطلوب تنفيذها منه ووضع كل الأمور على الورق. إملاءاته، مذكراته، مسوداته، مسوداته المكررة وندفه الثلجية تشي جميعاً باقتناعه بأنه في مواجهة عقبات هائلة. في 20 آذار/مارس أملى مذكرة من أربع صفحات: "الموضوع: التحدي – أهمية النجاح".

أملى: "بعد شهرين من العمل، من الواضح أن المؤسسة الدفاعية مكبلة بقيد مرساتها". يطالب الكونغرس بمئات التقارير. لا يستطيع البنتاغون بناء منشأة بنصف مليون دولار دون موافقة الكونغرس. ثمة عدد كبير من المراقبين ومفتشي الحسابات، مر المحققين، من فرق الاختبار ومن المشرفين الدائبين على إحصاء أنفاس البنتاغون، ربما أكثر من "معدل الـ 24000 في أي يوم، لدى الجيش الأمريكي من القوات القابلة للنشر مع الأسلحة". كانت خطط الأفراد في الجيش "مصممة لإدارة قوة مجندة من أفراد" ولم يتم إبدالها بـ "قوة متطوعين مع عائلات". كان ضباط القوات المسلحة ينقلون "من مهمة إلى أخرى كل 20 إلى 25 شهراً أو نحو ذلك، إلى درجة أن الضباط الناجحين يخترقون قمم الموجات بسرعة كبيرة تحرمهم من فرصة التعلم من أخطائهم الذاتية". تصر المؤسسات العسكرية الهامشية "على التبني الطائش لأنموذج أنظمة الإدارة

السوفيتية المركزية الفاشل على أصعدة الإسكان، المخازن التموينية، الرعاية الصحية والتعليم بدلاً من اعتماد نماذج القطاع الخاص التنافسية المثيرة لإعجاب العالم".

أفاد بأن عدم الثقة بين الكونغرس ووزارة الدفاع بلغ حداً "بات، على الصعيد العملي، يحرم الأخيرة من القدرة على الاضطلاع بإدارة شؤونها".

"إن شبكة القيود المفروضة على الوزارة تلزمها بأن تتحرك بقدرٍ من البطء، الثقل وعدم الكفاءة بحيث لا تنجز ما تقوم به من عمل إلا وهي متخلفة، حتماً، عقدٌ من الزمن أو نحوه، عن الركب.

دون تغيير العلاقة مع الكونغرس وتصويبها، "من غير الممكن تغيير قواتنا المسلحة" برأي رمسفلد.

بعد ستة أيام أمطر وولفوفيتز، كمبون، واثنين آخرين بأربع ندف ثلجية صُلبٌ ملاحظاتهم وآراءَهم. مذكرة "قيد المرساة" هذه ما لبثت أن أصبحت فضيحة بين أعضاء جهاز العاملين لدى رمسفلد إذ عكفوا على دراستها وحاولوا مساعدته على تحديد تخوم عالم مشكلاته. مع حلول العاشر من نيسان/إبريل كان قد أملى طبعة مؤلفة من 10 صفحات، وفي الأول من أيار/مايو كان الحجم قد وصل إلى 12 صفحة. وعند ذلك المنعطف كان قد اكتشف أن الكونغرس كان يطلب 905 تقارير سنوياً. في 1962 كان قانون تفويض الدفاع صفحة واحدة؛ وفي 1975 حين كان وزيراً كان القانون 75 صفحة. "أما اليوم فقد تورم القانون وأصبح مؤلفاً من 988 صفحة".

بدا وكأنه تخلى عن فكرة إصلاح البنتاغون في فترة رئاسة جورج دبليو بوش. فالمهمة بالغة الصعوبة، ومن شأنها أن تستغرق وقتاً طويلاً جداً، مما جعله يملي قائلاً "لذا، فإن مهمتنا هي العمل معاً من أجل سن الرماح التي سيستخدمها الرئيس المقبل".

قلت لرمسفلد في مقابلة أجريتها معه في 2006: "عندي أربع مسودات للمذكرة".

"حقاً؟"

"نعم، سيادة الوزير!" قلت وأنا أقدم له نسخاً "أردت تزويدك بنسخ".

"أصبحت أفضل" قال الوزير.

وافقت على ما قاله وقلت: "نعم أصبحت أفضل. قد تشي بأنك في صراع، إذا جاز لي أن أكون صريحاً معك".

قال: "هذه مهمة صعبة هنا. هذه الوزارة ليست سهلة. أستطيع أن أتذكر أنني أمضيت شهراً، شهرين واقفاً هنا وراء مكتبي في الليل، متأملاً الأمر كله. قائلاً: حسناً طُلب مني أن أتولى هذه المهمة. قبلت. ما هي؟ كيف تحدد معالم المهمة وحدودها وما هي المشكلات التي تواجهك وما هي العقبات التي تعترض سبيل إنجازك لها؟ ما الشيء القليل لأن يُفعل وما الشيء غير القابل لأن يُفعل؟"

اقتبست جملة من مسودة المذكرة الأخيرة: "سيتعين علينا أن نفعلها من أجل الرئيس المقبل".

علق قائلاً: "في مكان عملاق كهذا، كما تعلم، ذلك صحيح تقريباً عن كل شيء". وأشار إلى أنه كان وافق عام 1975 بوصفه وزيراً للدفاع للمرة الأولى على إنتاج دبابة الإم - 1 التي استُخدمت في حرب الخليج الأولى وفي الاجتياح الأخير للعراق. كذلك كان قد وافق على الاف - 16 التي مازالت قيد الاستعمال في العمليات الجوية فوق العراق. كان يتحدث بشيء من الحزن: "هذه القرارات التي تتخذها لا تتحقق إلا بعد انقضاء فترة طويلة من الزمن، إما لمصلحة البلد أو، على العكس من ذلك، لغير مصلحة البلد إذا أخفقت في القيام بعمل معين".

4

في الفاتح من نيسان/أبريل أجبرت الصين طائرة تجسس تابعة للبحرية الأمريكية من طراز إي بي - 3 إي على الهبوط وأخذت طاقمها المؤلف من 24 شخصاً رهائن، وهذه هي أزمة السياسة الخارجية الأولى بالنسبة إلى إدارة بوش. أصر البيت الأبيض على إبقاء الرئيس بوش بعيداً عن وضع الرهائن الحساس. فالرئيسان جيمي كارتر ورونالد ريغان كانا قد أعطيا آخذي الرهائن نفوذاً عبر انخراطهما عاطفياً في السعي لاستعادة أمريكيين محتجزين في إيران ولبنان. في مثال كارتر كان الأمر قد أفضى إلى شعور عام بالعجز والخوف في البلاد، مع قيام محطة الايه بي سي نيوز بتقديم برنامج مسائي يومي بعنوان **أمريكا رهينة** مصرة على تذكير المشاهدين كل مساء بمدة احتجاز الأمريكيين. أما في ظل ريغان، فإن أزمة الرهائن كانت قد قادت إلى صفقات الأسلحة لسرية مع إيران وإلى أكبر فضائح رئاسته: إيران - كونترا. صورة العجز التي تحملها سابقاه كانت ستُمنع من أن تتطور في إدارة جورج دبليو بوش.

جرى تكليف وزير الخارجية كولن باول بالتفاوض على تسوية مع الصينيين. استعان باول بالأمير بندر المتمتع بعلاقات خاصة مع الصينيين عبر صفقات شراء الأسلحة والصواريخ المختلفة. كذلك كانت الصين بادئة في التعويل على النفط السعودي.

ما لبث بندر أن أقنع الصينيين بإطلاق سراح الرهائن الـ 24. وبندر الذي لا يخفي اعتزازه بنفوذه على الإطلاق عد الأمر أشبه بخدمة شخصية له. طلب الصينيون رسالة من الولايات المتحدة تعبّر عن الأسف. كانت تلك هي نوعية الرطانة الدبلوماسية التي اختص بها بندر. تنفيذاً لرغبة الصينيين كانت الولايات المتحدة ستقول إنها "آسفة جداً" لقيام طائرة التجسس بانتهاك الأجواء الصينية من أجل الهبوط اضطرارياً، فيما لم تكن الولايات المتحدة ستعتذر عما عدّته مهمة جمع معلومات شرعية. كانت وكالة الأمن القومي تراقب اتصالات بندر مع الصينيين، وترسل تقارير إلى باول عن المفاوضات المختلفة. اتصل باول ببندر مهنئاً.

"هاي، عظيم!" قال باول عبر الهاتف.

"وما أدراك؟!" سأل بندر.

بعد وقوعه في خطأ التسرع، حاول باول متردداً بخجل أن ينأى بنفسه عن التفسير. كان لبندر يعرف أن اتصالاته خاضعة للمراقبة، غير أنه، هو وباول، لم يكونا قادرين فعلاً على التحدث عن إحدى أكثر عمليات جمع المعلومات الاستخبارتية حساسية وسرية لدى حكومة الولايات المتحدة المنطوية على اتصالات بين حكومات أجنبية. لعام كامل ظل باول وبندر يتبادلان أنصاف الابتسامات حول الأمر دون الدخول في تحديده الفعلي.

طلب رمسفلد قصة طائرة التجسس هذه من الألف إلى الياء، بدءاً باللحظة الأولى. لم تعجبه أي ناحية منها. تعرضت طائرة التجسس للمتابعة عن كثب وللاعتراض من جانب إحدى المقاتلات الصينية، وقد حصل تصادم. تمثل أحد الأسئلة بما إذا كان الطيار الأمريكي قد اتخذ القرار الصائب عندما هبط في الصين. ومع غَوْصه أعمق، راح رمسفلد يسأل عن جدوى وإنجازات هذه المهمات الاستخباراتية، من الذي يجيزها؟ من الذي يقدم المعلومات الاستخباراتية التي تجمعها؟ ماذا عن المخاطر مقابل المكاسب والمكافآت؟ ما لبث ذلك أن أفضى إلى المزيد من الأسئلة كما إلى تقويم من القمة إلى القاعدة لجملة مهمات جمع المعلومات الاستخباراتية من سائر المنصات المحمولة على متون طائرات سلاح الجو الأمريكي.

متحدثاً أمام هيئة الأركان وخبراء الاستخبارات قال فراي: "مؤلمة، ولكنها مهمة". فمثل هذه المهمات المنطوية على مستويات عالية من احتمالات الخطر كانت متواصلة منذ سنوات وقائمة على نوع من الطيار الآلي. لا بد من إعادة النظر بها ومعاينتها من جديد، برأي فراي، غير أن رمسفلد أصر على متابعة تقليب الصخور والعثور على أعداد كبيرة من الديدان.

تركز السؤال على موعد استئناف مهمات طائرة التجسس طراز اي بي - 3 بالقرب من شواطئ الصين. بعد بضعة أيام عقد رمسفلد اجتماعاً آمناً مع كل من رئيس هيئة الأركان المشتركة ريتشارد بي ميرز والأميرال دينس بلير، القائد العام لقيادة المحيط الهادي، القائد الميداني في المنطقة المعنية. كان الجنرال شلتون مسافراً فجاء ميرز ممثلاً للأركان المشتركة. وجنرال الجو المهذب، مفرط طول القامة، هذا كان نائباً لشلتون منذ عام ونيف. كان ناعم الكلام ميرز، وهو طيار مقاتلة إف - 4 في فيتنام، قد

توى منصب القيادة العامة لقيادة الفضاء الأمريكية قبل أن يصبح نائباً لرئيس الأركان في آذار/مارس 2000.

انشغل العميد البحري كوين بكتابة المحضر فيما تحاور كل من رمسفلد، الأميرال بلير والجنرال ميرز.

اقترح بلير استئناف المهمات التجسسية بسرعة. زعم الصينيون أن الطلعات كانت تنتهك أجواءهم، إلا أن الولايات المتحدة كانت تقر بحدود مياه إقليمية تصل إلى 12 ميلاً بحرياً ولم تكن راغبة في التنازل أو التراجع أمام التهديدات الصينية. قدم بلير برامجاً لعملية استئناف الطلعات الجوية.

علق رمسفلد: "إنها خطة جيدة على ما يبدو يا دني. وافني بخطاب من صفحة واحدة يلخص التفاصيل الدقيقة كي أعرض الأمر على كل من كوندي رايس وكولن باول صباح الغد". كان له لقاء هاتفي آمن مع رايس وباول في الساعة السابعة والربع من صباح كل يوم عمل.

"أمرك سيدي" قال بلير.

صباح اليوم التالي في السادسة صباحاً كان كوين في المكتب مشغولاً بالبحث عن خطاب بلير عندما اتصل رمسفلد قائلاً:

"لا أرى الخطاب الصادر عن دني بلير"

"وأنا أيضاً أبحث عنه، سيادة الوزير، ولا أستطيع العثور عليه".

هرع كوين إلى مكتب فراي قبل السابعة. كان فراي في اجتماع. معاونه التنفيذي، نقيب بحري شديد الانضباط، نظر بشيء من الاستغراب إلى كوين الذي سأله عن خطاب من الأميرال بلير. يبدو أن بلير كان قد وجه الخطاب، جرياً على العادة القديمة - إلى شلتون وهيئة الأركان المشتركة فقط، لا إلى رمسفلد.

قال معاون فراي التنفيذي: "لا أستطيع أن أعطيك الخطاب". زاعماً أن يده مقيدة لأن الخطاب موجه فقط إلى هيئة الأركان المشتركة.

عندما عاد فراي، حمل معاونه نسخة من خطاب بلير قائلاً: "بالمناسبة، قلت لجي جي كوين إن الوزير لا يستطيع الاطلاع على هذا حتى يراه رئيس الأركان".

كذلك يتذكر كوين كيف سأل فراي عن الخطاب ويزعم أن فراي هو الآخر رفض تسليمه نسخة من الخطاب. غير أن فراي يلقي اللوم والمسؤولية على معاونه التنفيذي.

مهما يكن، عاد كوين إلى مكتب رمسفلد ليقول: "سيادة الوزير، الخطاب موجود في مكتب مدير الأركان المشتركة، غير أن المسؤولين هناك يرفضون تسليمه لي".

رفع رمسفلد سماعة الهاتف. كان شلتون لا يزال مسافراً، فطلب نائب الرئيس ميرز

هرع ميرز مسرعاً إلى مكتب رمسفلد. "ما المشكلة، سيادة الوزير؟"

انفجر رمسفلد صارخاً: "أي جحيم تظنون أنفسكم أنتم يا .... هناك؟ لا أستطيع أن أصدق هذا".

كان كوين واقفاً في الطرف الآخر من الغرفة. لم يسبق له أن رأى إنساناً غاضباً بلغ المستوى الذي بلغه رمسفلد.

بأعلى صوته صرخ رمسفلد: "أين الولاء هنا؟" ثم انقض على ميرز تعنيفاً وتوبيخاً ملوكيين. منذ أشهر والأمور عالقة برسن المرساة. تدفق طوفان الخيبة. خلال ربع القرن الذي أمضاه كوين في البحرية لم يسبق له أن رأى شيئاً كهذا. جمد في مكانه.

أكد ميرز بإلحاح أنهم لم يكونوا يحاولون إخفاء أي شيء عن الوزير. من شأن ذلك أن يكون سخيفاً. كلاهما كانا في الاجتماع مع بلير. من الواضح أن هناك نوعاً من الخطأ غير المقصود. مؤكد، بالطبع، أن الزعيم هو رمسفلد. لا أحد يقول غير ذلك. حاول أن يدافع عن هيئة الأركان المشتركة.

لم يكن رمسفلد مستعداً لسماع أي شيء، بل واصل إمطار ميرز بوابل من عبارات التأنيب والتوبيخ. نظر كوين إلى الساعة التي كانت تشير إلى السابعة ودقيقتين. كان المؤتمر الوشيك لباول – رمسفلد – رايس بعد 13 دقيقة.

بعد انتهاء حفلة التوبيخ، خرج ميرز ثم التفت إلى كوين وقال: "ما الذي يجري بحق الشيطان؟"

زوده كوين بالمعلومات؛ نزل ميرز إلى مكتب الأركان للحصول على نسخة من الخطاب، ما لبث أن جلبها إلى مكتب رمسفلد قبل حلول موعد الندوة.

بعد الندوة، كان رمسفلد على خط الانترفون في مكتب كوين طالباً: "هل تستطيع أن تأتي؟".

دخل كوين إلى مكتب الوزير الذي سأله عن رأيه عما حصل.

"سيادة الوزير، حين تقرر مرة أخرى توبيخ جنرال أربعة نجوم كما فعلت، أعتقد أن من واجبي أن أختفي، ألا أكون موجوداً".

"لا، لن تفعل، لن تغيب. أريدك شاهداً". طلب من كوين تنظيم اجتماع لمجلس البنتاغون العام. كان يريد أن يسأل عن سلطته الشرعية بالنسبة إلى الأركان المشتركة وبمدى قدرته على طرد موظفين وإبعادهم.

خرج رمسفلد عن طوره. أكثر كبار المسؤولين المدنيين الذين عينهم لم يكونوا قد ثُبتوا في مناصبهم بعد. بدا شاكياً من أنه كان يشعر كما لو كان يدير البنتاغون وحده. لم يكن لديه فريقه الخاص. قال: "أنا هنا وليس لدي أحد يعمل في خدمتي". هائجاً وقد شبع مللاً بعد أسابيع من الشعور بأن سلسلة القيادة لم تكن موضع احترام، بالغ في التعويل على مستشاره ستيف هيربتس.

فاتح رمسفلد مستشاره قائلاً: "أريد أن أتحدث مع القادة الميدانيين. أريدهم أن يرفعوا تقاريرهم إلي. ذلك هو ما يقوله القانون". أبلغ هيربتس بأنه كان يتأخر كثيراً في الإطلاع على الأمور من خلال هيئة الأركان المشتركة؛ وقد حدث ذلك مرة بعد أخرى. كان غاضباً من شلتون وفراي.

اقترح هيربتس: "عليك أن تطرد أحدهم. لابد لك من أن تجعل الناس يدركون بأنك أنت الرئيس هنا. هاك مثالاً أنموذجياً! اطرد فراي!" كان الأخير يبدو مفتقراً إلى الكفاءة.

سرعان ما اطلع شلتون العائد من السفر على حقيقة أن رمسفلد كان يخطط لتلك تحديداً. كان شلتون وميرز يعتقدان بأنهما كانا قد شرحا الالتباس المتعلق بخطاب الأميرال بلير، ووعدا بان الأمر لن يتكرر. لم يعلم شلتون ما إذا كان الأمر هو ذلك أم أنه موضوع جديد، فتوقف في مكتب فراي ليرى ما إذا كان ثمة أي أجوبة ندف ثلج يجب إيصالها إلى رمسفلد.

كان ستيف كامبون قد أصدر أمراً يقضي بوجوب الرد على جميع ندف الثلج في غضون 24 ساعة، وبيّن فراي أنه كان يحاول المواكبة. أحياناً كان يشعر بأن أكثرية عمل

الأركان المشتركة منصبة على استفهامات رمسفلد. "ليس هناك عدد كاف من الموظفين في البنتاغون للرد على جميع ندف الثلج المنهمرة من الطبقة الثالثة" - حيث كان مكتب رمسفلد.

استطاع شلتون أن يرى أن فراي، ذلك المجتهد الذي لا يعرف معنى التعب والمؤهل لأن يصبح قائداً ممتازاً في المستقبل، بد مرهقاً، مهدوداً من التعب، إذ كان يعمل أيام العطل الأسبوعية، ويبقى في مكتبه إلى أنصاف الليالي دائباً على الرد على ندف الثلج.

اندفع شلتون بقوة إلى مكتب رمسفلد واقتحمه بعنف فارضاً مجابهة.

قال رئيس الأركان: "إذا لم تكن راضياً عن سكوت فراي، فهو يعمل معي، أما إذا كنت غير راضٍ عني أنا فذلك يعني أنك لست راضياً عني أنا. يمكنك أن تضرب عصفورين اثنين بحجرٍ واحد".

بدا رمسفلد متراجعاً وأصر على إنكار قيامه بالتخطيط لاستبعاد فراي.

عاد شلتون نازلاً إلى مكتب فراي.

قال شلتون: "لم تحصل على أي إجازة. لم تعطل يوماً واحداً. كنت هنا كل يوم دوام. لماذا لا تأخذ إجازة لبضعة أيام؟"

علق فراي: "يا للعنة! نحن على ما يرام".

أمره شلتون: "خذ إجازة لبضعة أيام. سأراك الخميس، هيا!"

كان يوم عمل فراي يبدأ في السادسة صباحاً لدى ذهابه إلى مركز القيادة العسكرية القومية للحصول على خلاصة التطورات الحاصلة ليلاً، مراجعة الخطابات، وإجراء الاتصالات الهاتفية حول العالم للوقوف على أحدث صور الوضع. في السابعة كان يقدم تقريره إلى شلتون تجهيزاً له من أجل اجتماع الثامنة والنصف مع رمسفلد. وبعد ذلك كان فراي يتولى تمثيل الأركان المشتركة في اجتماع أوسع كان رمسفلد يعقده في ساعة متأخرة من الصباح. في ذلك الاجتماع درج رمسفلد على الطواف حول الطاولة والسؤال عما إذا كان لدى أحد شيء يقوله. كانت اللازمة التي اعتاد فراي على تكرارها هي: "لا شيء هذا الصباح، سيادة الوزير!" مطمئناً إلى أنه كان قد مرر كل شيء مهم في ذلك الصباح إلى شلتون الذي كان قد سبق له أن أطلع رمسفلد على الوضع.

موجهاً كلامه إلى جهاز العاملين عنده قال رمسفلد: "إن فراي يأتي إلى اجتماعي وهو لا يحمل معه أي شيء ليعين يقوله".

في الخامس والعشرين من نيسان/ابريل 2001 أجرى تلفزيون أيه بي سي مقابلة مع بوش حول أيامه المئة الأولى. الإعلامي الذي أجرى المقابلة، تشارلز جبسون، سأل بوش عما إذا كانت الولايات المتحدة ملزمة بالدفاع عن تايوان.

"نعم نحن ملزمون. ويتعين على الصينيين أن يفهموا ذلك". أجاب بوش.

"ولن تتردد في ...".

"نعم لن أتردد".

"بكل قوة الجيش الأمريكي؟"

"بكل ما يلزم لتمكين تايوان من الدفاع عن نفسها".

كان ذلك أحد أقوى البيانات الصادرة عن الولايات المتحدة حول قضية تايوان الحساسة. انزعج الصينيون.

اتصلت كوندوليزا رايس ببرنت سكوكروفت. الذي سبق له أن شغل منصبها في عهد والد بوش، وطلبت منه المجيء لمقابلة الرئيس. اجتمع سكوكروفت بالرئيس ورايس سراً.

تركز سؤال بوش الجوهري على كيفية الخروج من المأزق.

بعد استماعه إلى سكوكروفت رجاه بوش أن يذهب إلى الصين في مهمة سرية للقاء الرئيس جيانغ زمين وشرح سياسة الولايات المتحدة. وافق سكوكروفت الذي كان موشكاً على الذهاب إلى الصين في عمل خاص على التحدث مع جيانغ نيابة عن الرييس. أبلغ الزعيم الصيني أن سياسة بوش قائمة على الدفاع عن تايوان إذا ما تعرضت لهجوم غير مبرر، أما إذا أقدم التايوانيون على التحرك لتغيير الوضع القائم وحدهم، فإن الولايات المتحدة لن تدافع عنهم. بدا جيانغ وبوش مقتنعين وراضيين، ومهمة سكوكروفت لم يُكشف عنها للملأ.

كان سكوكروفت مسروراً من تراجع الإدارة عن زلّتها. بنظر سكوكروفت وبوش الأب تمثّل العنصر المفتاحي لأي سياسة خارجية قوية وحصيفة باعتماد خطوات متو زنة، معتدلة دون أي شطط. بدا التراجع عن الخطأ خبراً ساراً.

كانت ندوة رمسفلد الهاتفية الآمنة اليومية في السابعة والربع صباحاً مع كل من باول ورايس مصدر إزعاج. بكل صلاته القائمة على سنواته الـ 35 في الخدمة العسكرية السابقة، على توليه منصب مستشار ريغان للأمن القومي، وعلى اضطلاعه الآن بمنصب الدبلوماسي الأول في إدارة بوش، كان باول متوفراً على قدرٍ من المعلومات الاستخباراتية ربما أكبر من أي فرد آخر في حكومة الولايات المتحدة. تولى صديقه الأقرب، ريتشارد آرميتاج، نائب وزير الخارجية الآن، إدارة حملة هجومية يومية كاسحة خلال اجتماعاته واتصالاته الهاتفية حيث درج على تكرار عبارة: "زوّدوا الوحش بالعلف!" وحين يكون راغباً في تمرير شيء جيد إلى باول، اعتاد أن يؤكد عبارة "زوّدوا".

في ندوات رايس - باول - رمسفلد الهاتفية الصباحية، كثيراً ما كان باول متيقظاً على شيء جديد من الخارج أو من سلسلة معلومات واشنطن. كان يستمتع بهذه اللحظات التي يجد فيها نفسه قادراً على الكشف عن موضوع صغير ذي علاقة بالجيش لم يكن رمسفلد قد سمع به. وفي الاجتماع الصباحي اللاحق مع شلتون كان سؤال رمسفلد المتكرر: "لماذا كان باول مطلعاً على ما لم أطلع عليه أنا؟" كثيراً ما كان الأمر يقود إلى إعادة تنظيم وتجديد بناء قنوات تدفق المعلومات. كيف كان يتم أن يتمكن أحد في الإطار الواسع لتلك المؤسسة العسكرية الأمريكية العملاقة من معرفة أي شيء يحتمل أن يكون مهماً أو من لواضح أنه مهم دون أن يمر ذلك الشيء عبر وزير الدفاع؟ أحد أسئلة رمسفلد المفضلة تمثل بـ: ما الذي يجعل القادة الميدانيين يتحدثون معكم أنتم، فيما هم يعملون عندي أنا؟

وابل نُدَف الثلج ظل منهمراً بغزارة وعنف. في إحدى المراحل أدرك فراي أنه عاجز عن إيجاد نظام تعقب قادر، بكفاءة، على مراقبة كل ما من شأنه أن يفعل فعله في الرؤساء المشتركين وفي الأركان المشتركة. ذلك لأن رمسفلد كان يطلق سيولاً من ندف الثلج إلى كل الأشخاص، بصرف النظر عن مراقبتهم ومواقعهم في البنتاغون. وندف الثلج المرسلة إلى آخرين كانت في الغالب ترد إلى فراي كلياً أو جزئياً، فيتعين على حين غرة أن يتم الرد على طوفان من الطلبات خلال ساعات قليلة. إلا أن رمسفلد كان لديه نظام متابعته الخاص، ذلك النظام الذي كان يفرّخ مزيداً من الأسئلة ودفق ندف الثلج عن المصائر التي آلت إليها ندف الثلج التي مرت دون أجوبة.

ذات يوم تعرض كامبون للتوبيخ الشديد من جانب رمسفلد وحطّ متذمراً على مكتب كوين مقطوع الأنفاس وهو يسأل: "هل أنا على تلك الدرجة من السوء؟"

في يوم آخر اقترب كوين من نائب الرئيس تشيني في إحدى حفلات استقبال البنتاغون ملتمساً أي نصيحة. فرد عليه تشيني قائلاً: "هاك ما يمكنني أن أقوله عن دون رمسفلد. لن تحصل منه على أي مديح، بالمطلق. ولن تعرف مدى نجاحك في العمل إلا إذا كلفك بالمزيد من العمل. إذا حصل ذلك، فتأكد أنك على ما يرام".

برأي كوين كان رمسفلد مضطلعاً بمهمة ضرورية ونبيلة. على امتداد ثماني سنوات في ظل كلنتون كان رئيس هيئة الأركان المشتركة قد وضع يده على البنتاغون. ورمسفلد يحاول الآن أن يستعيد انتفوذ من تلك المؤسسة ووضعها تحت السيطرة المدنية السليمة. علاقة كوين مع فراي وغيره من كبار ضباط القيادات المتوسطة في الأركان المشتركة كانت مرعبة. كان هؤلاء متحصنين برتبهم ولم يكن كوين قادراً على إيصال طلبات رمسفلد وأوامره بالمرجعية والملحاحية اللتين كانتا تميزان صدورها. ذات يوم شكا كوين من أن رمسفلد وحاشيته المدنية لم يكونوا يتعاونون معهم - مع الأركان المشتركة - من منطلق أنهم مسؤولون.

كانت زوج كوين مع ابنتيه الصغيرتين يعشن على مسافة ساعة ونصف الساعة تقريباً في مَريلاند حيث قيادة الفضاء البحري، وبالتالي فإن كوين لم يكن يقضي سوى جزء من عطلة نهاية الأسبوع مع عائلته. حاول تدبير مسكن في إحدى القواعد المحلية الأقرب من البنتاغون ودخل في معركة رهيبة مع الجيش. تدخل كامبون ولكن كوين لم يحصل على أي مسكن في إحدى القواعد المحلية لأن المسألة كانت حملة مناكدة صيرة. اعتقد فراي أن الأمر كان يبدو جزءاً ثميناً من وقت كوين وطاقاته العاطفية وبدأ يتذمر من تدهور أداء الأخير.

بالنسبة إلى كوين كانت مسألة السكن عارضة. شعر بعجزه عن أداء وظيفته وأخذ أموره بيده وذهب بها إلى رمسفلد. قال للأخير:

"لابد لك هنا من أن تحدث تغييراً في موقع ومرتبة معاونك العسكري. أنا ضابط نجمة واحدة أصحاب النجوم الثلاث والأربع لا يصغون إلي. يلتفون حولي. يتجاوزونني. الثقافة السائدة لا تمكنني من توجيه الأوامر والإيعازات".

"لا" رد الوزير "كيمياؤنا جيدة. سنتجاوز الأمر، سننجح".

غير أن رمسفلد شكا لهيريتس عن الفوضى في مكتبه بالذات. جميع الأمور كانت تسير ببطء شديد ولم يكن راضياً عن تجاوب العسكريين معه. لذا تعين على هيريتس

أن يلملم حوائجه في المكاتب الانتقالية في الطابق السفلي من البنتاغون وينتقل إلى جناح رمسفلد في الطابق العلوي، ليتمكن من مراقبة حركة الناس والأوراق. ركز مكتبه بين مكتبي الأميرال كوين من جهة ومساعد رمسفلد المدني الخاص، ستيف كامبون من جهة ثانية.

بعد مراقبة أداء كوين عدداً من الأسابيع، دلف هيريتس إلى مكتب رمسفلد وأعلن مردداً صدى تقديم كوين الذاتي: "لا يمكن للوضع أن يستمر على حاله".

سأل الوزير: "ولماذا؟".

صحيح أن كوين كان ضابطاً كفؤاً، شريفاً، صادقاً، غير أن نجمته اليتيمة لم تكن تمنحه السطوة الكافية في المؤسسة العسكرية المدمنة على تقديس الرتب. كان أعلى من أي نقيب بحري أو عقيد بري بمرتبة واحدة فقط وبالتالي لم يكن قادراً، بالفعل، على إصدار الأوامر أو التحدث نديّاً مع ذوي النجوم الثلاث في الأركان المشتركة أو في الأمكنة الأخرى. كان كوين يتعرض للتجاهل من قبل فراي والآخرين. قال هيريتس إن العلاقة بين معاون الوزير العسكري ومدير هيئة الأركان المشتركة ذات أهمية حاسمة في أداء البنتاغون لوظائفه. لعلها إحدى لعلاقات الأكثر أهمية في المبنى كله. من بعض النواحي كانت العلاقة هي الأهم، ولم تكن سالكة أو ناجحة.

ذلك الربيع أعلنت البحرية عن اعتزامها استئناف تدريبات القصف في جويرة صغيرة قريبة من بورتوريكو تحمل اسم بييكاس. ثمة كان تاريخ طويل من الخلاف والسجال. قبل عامين كان أحد الحراس المدنيين قد قتل في إحدى عمليات القصف؛ كان المتظاهرون قد استولوا على حقل الرمي، وفي عام 2000 كان المرشح الناجح حكماً لبورتوريكو قد جعل من طرد القوات البحرية من جزيرة بييكاس شعار حملته الرئيس.

قام رمسفلد بإبلاغ كوين: "أريد أن أقف على حقيقة بييكاس بذكاء. اتصل بالبحرية. قل لهم أنا بحاجة إلى تقرير موجز. إيجاز لا يتضمن أكثر من خمس إلى عشر خرائط". كان يمقت التقارير المطولة المدعومة بالسلايدات ووسائل الإيضاح الأخرى التي كان البنتاغون مشهوراً بها. "إيجاز لمدة عشر دقائق، تعقبه مناقشة لمدة عشرين دقيقة" أمر الوزير.

نقل كوين الأمر إلى كبار أميرالات عمليات سلاح البحرية في البنتاغون وإلى أميرال النجوم الأربع المسؤول عن أسطول المحيط الأطلسي. كان واضحاً - لا أكثر من

خمس إلى عشر سلايدات، 10 دقائق إيجاز متبوعة بعشرين دقيقة مناقشة للمسائل. والنقاش كان دائماً الجزء الذي أحبه عقل رمسفلد الفعال.

بعد قليل كان أميرال النجوم الأربع المسؤول عن أسطول الأطلسي في مكتب رمسفلد مصحوباً بثمانية رجال و60 سلايداً. قام الأميرال بعرض 15 سلايداً في نصف الساعة المخصص فيما عينا رمسفلد تدوران في محجريهما وهو يتراقص في كرسيه.

قال رمسفلد: "سيتعين علي أن أوقف هذا الإيجاز"، وأخرج الجميع من المكتب بطريقة أو بأخرى.

فيما بعد شكا لكوين سائلاً: "هل أفهمتهم ما أردته؟"

تكرر المشهد مرة بعد أخرى – كل التفاصيل باستثناء دعوة مطبوعة، قال كوين.

علق رمسفلد: "لا يصغون، أليس كذلك؟"

كرر كوين: "الثقافة السائدة لا تمكن ضابط النجمة الواحدة من فعل هذا".

عن مشكلة جزيرة بييكاس قال رمسفلد لكوين: "سنعيد لهم الجزيرة ونشتري أخرى. يا له من كابوس سياسي وإعلامي!" غير أن رمسفلد كان شديد الاهتمام بالبحرية، سلاحه القديم. خلال الأيام الأولى من عودته إلى البنتاغون، كانت الغواصة يو اس اس غرينفيل تتدرب على عملية صعود إلى السطح بالقرب من شواطئ هاواي واصطدمت بقارب صيد ياباني مودية بحياة 9 أشخاص بمن فيهم بعض الطلبة اليابانيين. ثم كانت حادثة طائرة التجسس طراز إي بي – 3، والآن قصة جزيرة بييكاس.

في السابعة والدقيقة الواحدة والخمسين من صباح يوم 27 نيسان/ابريل أملى رمسفلد ندفة ثلجية لخصت أفكاره ومشاعره.

"الموضوع: البحرية"

"من شأن المشكلات في سلاح البحرية أن تكون نظامية. أن تقع في الأخطاء وأنت تدفع المظروف شيء، أما أن تقترف الأخطاء وأنت تسير نحو العمل فشيء آخر".

5

ازداد شلتون قنوطاً وكآبة. دأب رمسفلد على القول بأن شلتون يجب أن يقدم مشورته العسكرية إلى الرئيس عبر رمسفلد. ظل شلتون يكرر عدم اقتناعه بالأمر نظراً لأنّ العنوان اكس جعله "المستشار العسكري الأول" لرئيس الجمهورية. كان من واجبه أن يقدم مشورته على نحوٍ مباشر.

ذات مرة قال رمسفلد خلال زيارة له إلى الدبابة، غرفة مؤتمرات رؤساء الأركان: "أنتم لا توفرون أي قيمة مضافة".

رئيس العمليات البحرية وهو أميرال في السادسة والخمسين من العمر يضع نظارات معروف بالاجتهاد يدعى فيرن كلارك رد على الوزير. قال: نحن لا نستطيع الحصول ولو على نسخ من كل تلك الدراسات التي ينجزها مستشاروك. وثيقة يتيمة بالتحديد لم تُتح له هو فرصة الاطلاع عليها. "كيف تطلب منا أن نعلق على هذه ونحن لم يسبق لنا أن رأينا الوثيقة؟"

اعترض رمسفلد بشدة. "حسناً، ليس ما تقوله صحيحاً. الوثيقة متاحة لكم جميعاً".

قال كلارك: "السيد الوزير، اتصلت بمكتبك شخصياً قبل ثلاثين دقيقة للحصول على نسخة من تلك الوثيقة وقيل لي من قبل العاملين في مكتبك إنني لست مخولاً بالاطلاع عليها".

قال رمسفلد إنه كان قد أمر بإنجاز الدراسات لأن الأركان المشتركة كانت عديمة الجدوى من حيث الجوهر. منهم متخصصون بدراسات سميكة تستغرق أشهراً أو أكثر، درسات لا تخترق القضايا الجوهرية، وغير قابلة للقراءة أساساً. "أنا لا أستطيع أن أحصل على أي منتوج من هؤلاء الأفندية". قال الوزير.

عارضه كلارك. كان مديراً للأركان المشتركة من قبل في مراحل سابقة من حياته العسكرية وأكد بأن أولئك قاموا بأعمال عظيمة معينة. لا بد لرمسفلد من أن يثمّنها عالياً، قال كلارك، وإذا لم يفعل إلى الآن، فإن عليه أن يتعلم كيف يقوم بذلك.

ابتسم رمسفلد مستهزئاً. بعد ذلك عاد إلى مكتبه مع كوين.

سأل رمسفلد: "هل رأيت صاحبك قائد العمليات الحربية؟"

"نعم سيدي" رد كوين "إنها المرة الأولى التي أرى فيها جنرال أربع نجوم يرد عليك بوقاحة".

بذل كوين محاولة ثانية للتحرر من المنصب. قال: "سيادة الوزير، أنت بحاجة لأن تختار أكبر وأوقح جنرال ثلاث نجوم في المبنى وتجعله معاونك العسكري الأول. ولا بد لك بطريقة ما من أن تعلن تلميحاً أن هذا "زبونك"، بمعنى أنه الرئيس الثاني للأركان المشتركة. عندئذٍ سيأخذه، الأميرالات والجنرالات الآخرون مأخذ الجد".

اكتفى رمسفلد بنشر ابتسامة عريضة على وجهه.

في مقابلات لاحقة، أفاد كوين بأن عسكريي الزي الرسمي كانوا يعتقدون بأن رمسفلد كان متورطاً في عملية انقلابية معادية. أضاف: "كانوا يعدونني خائناً".

اكتشف هيريتس أن أفضل مرشح يمكن أن يحل محل كوين ربما كان معاون رئيس عمليات البحرية للإمداد، المعدات الحربية والتقويمات، نائب الأميرال ادموند بي غيامباستياني، بحار غواصة تعمل بالطاقة النووية. يسمونه أكثر الأحيان: "الأميرال جي" لأن كثيرين كانوا يجدون صعوبة في لفظ الاسم. كان غيامباستياني هذا أحد خريجي الأكاديمية البحرية في 1970. كان قد عمل على الغواصة النووية الوحيدة لبحوث أعماق البحار لدى سلاح البحرية، انّ آر – 1، ثم تولى قيادة غواصة نووية هجومية سريعة تحمل اسم يو إس إس راسل، اضطلعتْ ببعض أكثر مهمات الحرب الباردة السرية شديدة الخطورة حساسية، على صعيد عمليات التجسس على الاتحاد السوفيتي. وقد كان مساعداً خاصاً لنائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية في ثمانينيات القرن العشرين كما تولى مؤخراً قيادة مجمل أسطول غواصات المحيط الأطلسي التابع لسلاح البحرية.

كان فيرن كلارك رئيس العمليات البحرية بعيد ذلك في الجولة الثالثة لإحدى دورات الغولف(*) بناغز هد النورث كارولانية، حين تلقى مكالمة تطلب منه أن يهاتف

(*) يستخدم المؤلف في هذا الفصل لغة مصطلحات شديدة الخصوصية للتعبير عن مختلف حركات لعبة الغولف الشائعة في الغرب ولكنها غير دارجة عندنا مما يزيد من صعوبة ترجمتها بدقة. المترجم.

رمسفلد في موعد محدد يتزامن مع انتهائه من الجولات التسع الأولى. كان كلارك أحد أغرب الرجال الذين تولوا قيادة سلاح البحرية. خلافاً لحال 25 من أسلافه الـ 26، لم يكن "خريج كلية عسكرية،" خريج الأكاديمية البحرية في آنابوليس الميريلاندية. فكلارك هذا وهو شخص عميق الإيمان بالمسيحية تخرج في كلية إنجيلية، معهد كنسي صغير في ميزوري. كان قد التحق بمدرسة مرشحي الضباط في 1968 في أوج الحرب الفيتنامية. وكان قد ترك الخدمة عام 1972 بعد جولة أولى لأنه لم يكن يحترم أكثرية الضباط الذين احترفوا العمل في سلاح البحرية، غير أنه ما لبث أن عاد إلى الالتحاق بالخدمة في العام التالي، مؤمناً بأن البحرية كانت قضية يتعين عليه أن يخدمها لبعض الوقت.

بوصفه قائداً من البحر، كان كلارك قد خدم الجنرال شلتون في حلقة الأركان المشتركة الأولى: مديراً للعمليات، أو جي - 3، متولياً مهمة الإشراف على سائر العمليات العسكرية الفعلية، وفيما بعد مديراً لأركانه المشتركة. وقبل نحو 25 سنة كان كلارك، وهو ملازم أول بحري، ضابط قيادة زورق دوريات حربي، يحمل اسم يو اس اس غراند رابيدز (بي جي - 98). أما الضابط التنفيذي معه فقد كان ملازماً أول مستجداً يدعى سكوت فراري، هو الآن مدير الأركان المشتركة.

على الرغم من أن شكوكاً عميقة كانت تراود رمسفلد بشأن البحرية وفراي، فقد بات مؤمناً بأن رئيس العمليات البحرية الأميرال كلارك كان على طريق إصلاح سلاح البحرية.

ما إن أصبح رمسفلد على اتصال بالأميرال كلارك حتى بادره بـ: "عندي هنا قضية تطورت مع معاوني العسكري. لك أن تعلم أن الأمر ليس على ما يرام".

"حسناً، أستطيع أن أفهم" قال كلارك. كان مطلعاً على صراعات العميد البحري كوين. "كل ما نحن بحاجة لأن نفعله. لابد من أن تحصل على أفضل دعم نستطيع توفيره لك".

"حسناً، لا أريد أن أُلحق به أي أذى" قال رمسفلد.

قال كلارك: "سيادة الوزير، يمكنني أن أفعل شيئاً بشأن ذلك. أستطيع أن أطمئنك إلى أنني سأعينه قائداً لمجموعة حاملة طائرات قتالية، أفضل المهام التي يمكن أن يكف بها من هو في مرتبته. لن أكون مؤذياً، فظاً. وسيتعين عليه هو أن يصنع الجزء الباقي من مستقبله. أستطيع أن أفعل هذا في غضون دقائق. قُضي الأمر. علينا أن

نحميك ونحمي المكتب، ومن الواضح أن أولئك الذين يغادرون المكان يجب أن يكونوا بحالة جيدة. إذن، هي صفقة تمت".

"أوكي، فيرن. عظيم. جيد، شكراً".

وفيما كان كلارك موشكاً على قطع لاتصال، بادره الوزير:

"لحظة يا فيرن. انتظر دقيقة. يجب أن أحصل على بديل".

"نعم، صحيح!"

"يحدثونني عن أميرال يدعى جي يعمل معك".

"مؤكد أنك تمزح، سيادة الوزير".

"هل هو مناسب؟"

"بالطبع، إنه مناسب جداً. تولى إدارة فريقي الانتقالي. إنه أسطوري، يكاد لا يُصدق".

أشار كلارك إلى عدم وجود شاغر لجنرال ثلاث نجوم عند رمسفلد لمساعده العسكري غير أن من الممكن إيجاد حل له. قال: "القواعد نفسها قابلة للتطبيق. لا بد من إحاطتك بالرعاية".

كان الأميرال جي في مكتبه عندما تلقى الاتصال. سأل:

"وزير ماذا؟"

"وزير الدفاع".

"أنا لا أعرف وزير الدفاع".

"حسناً، يريد أن يراك".

قال رمسفلد لغيامباستياني: "لقد كتبت هاتين الفقرتين. ماذا لو قرأتهما؟".

الوثيقة الأولى كانت صفحة واحدة فقط غير أن الثانية كانت مؤلفة من خمس صفحات منصبة على جملة الفروق بين حال البنتاغون في فترة رمسفلد الأولى بين عامي 1975 و1977 وحاله في 2001، الطبعة الأخيرة لمذكرة "سلسلة المرساة" أو "رسن الربط". لم يكن نقد الورقتين سوى نوع من الاختبار البسيط الذي كان غيامباستيني مولعاً به، حيث جرى إجبار العقل المدقق المتدرب على التعامل مع الطاقة النووية على

اقتناص المعنى الدقيق وفصله وصولاً إلى اكتشاف ما تم إغفاله والأسئلة التي بقيت غير مطروحة. أمضى نحو 45 دقيقة عاكفاً على القراءة والنقد. طلب منه رمسفلد أن يبقى للغداء، وفي اليوم التالي اتصل به وطلب منه أن يصبح مساعده العسكري.

أوائل أيار/مايو غادر العميد البحري كوين الوزارة ليتولى قيادة مجموعة حاملة طائرات اليو اس اس ترومان الحربية، وانتقل أميرال النجوم الثلاث جي إلى مكتب رمسفلد بوصفه مساعداً عسكرياً أول. تمثلت إحدى الفوائد المميزة بأنه، وهو خريج الـ 1970 في الأكاديمية الحربية، أصبح، في غمضة عين، أعلى مرتبة من خريج الـ 1971 في الأكاديمية نفسها، سكوت فراي.

قبل شهر كان رمسفلد قد أرسل ندفة ثلج عليها جملتان إلى نائب وزير الدفاع، بول وولفوفيتز. "شخص في إلينوي وافاني بهذه المقابلة التي تمت قبل 22 عاماً، أتحدث فيها عن الحكم والإدارة. قد يحلو لك قراءتها". صورة فوتوكوبي لمقالة في مجلة فورتشن عائدة إلى ما قبل 22 سنة كانت مرفقة. كان رمسفلد ينظّر لمواصفات موظف حكومي كبير سابق في عالم الأعمال. وقد تحدث عن إنشاء قوات ضاربة، عن الخلاص من المؤسسات والمشروعات المعقدة، وعن أساليب الإدارة.

كان رمسفلد قد قال [في المقابلة]: كنت أستاذ طيران في البحرية. أول شيء يفعله أي طيار ناشئ، مبتدئ، حين يصعد إلى أي طائرة، هو الإمساك بالمقود واعتصاره بقوة إلى درجة يشعر معها بألم في ذراعه. وبمثل تلك القبضة المحكمة يصبح كل شيء متشنجاً. وحين يدخل موظفو الحكومة في حالة محكمة، يميلون إلى أن يصابوا بالقدر نفسه من التشنج. يصبحون متشنجين، مفرطي التحكم، مولعين بالتدخل في التفاصيل الدقيقة".

بعض كبار الموظفين المدنيين الذين عينهم رمسفلد أُصيبوا بالدهشة والرعب إزاء مدى مبالغة الوزير في اعتصار مقابض التحكم بالبنتاغون. كان عاكفاً على التدخل في تفاصيل الحياة اليومية للبنتاغون والمبالغة في التشدد مع الناس. كان رمسفلد قد اختار باول ايه مور، ابن السنوات الثلاث والستين، من ولاية جورجيا مقيم في واشنطن منذ ما يزيد على أربعة عقود، معاون وزير دفاع للشؤون التشريعية، صلة الوصل المفتاحية بين البنتاغون والكونغرس. كان لمور تاريخ متعدد الألوان في واشنطن، بما فيه اضطلاعه بمهمة أحد الناطقين باسم لجنة إعادة انتخاب نكسون الذي سبق له أن اضطر للقيام بالوظيفة غير المحسودة المتمثلة بإصدار بيانات الإنكار القاطع لقصص

ووترغيت. كان الرجل خبيراً في التعامل مع العسرين. كان مور قد وافق على شغل منصب ضابط الارتباط مع الكونغرس شرط أن يكون على اتصال مباشر مع رمسفلد. عقد الرجلان عدداً كبيراً من الحوارات حول الاهتمام بالممثلين المنتخبين وإشباعهم.

ما من أحد فهم الكونغرس وكيفية تزييت الآلة وتشحيمها لجعلها تعمل أفضل من مور. إلا أن عضو الكونغرس السابق رمسفلد لم يكن مهتماً بذلك. فوجئ مور بمدى احتقار رمسفلد للكونغرس. لم يحاول الوزير إخفاء مشاعره.

في إحدى المجابهات العلنية خلال جلسة استماع مع السناتور سوزان كولينز، تلك الجمهورية الجادة من ولاية مين، كان رمسفلد قد عنّفها بأسلوب ذُهل منه هو نفسه. في إحدى المراحل ارتعش صوت كولينز، فيما بعد اقترح مور على رمسفلد أن يتصل بها، أن يحاول تسوية الأمور والاعتذار.

رد رمسفلد على الاقتراح بعنف قائلاً: "فلتذهب إلى الجحيم. هي التي يجب أن تعتذر لي".

في مناسبة ثانية اطلع مور على مسودة رسالة قاسية كان رمسفلد قد أملاها موجهة إلى النائب آيك سكلتون الميزوري، ذلك الديمقراطي المخضرم العضو في لجنة القوات المسلحة البرلمانية. أوصى مور بالتخفيف من اللهجة.

رد عليه رمسفلد قائلاً: "إذا سمحت للناس أن يركلوك مرة، فإنهم سيظلون يركلونك مرة بعد مرة".

تدخل رمسفلد في أصغر التفاصيل الإدارية كان مثيراً لقدر غير قليل من السخرية. في إحدى المرات تولى قيادة وفد من الكونغرس إلى كولومبيا السارث كاولانية لحضور جنازة النائب فلويد سبنس، جمهوري كان من صقور موالاة البنتاغون على امتداد ثلاثة عقود. كان مور قد رتب أمكنة الجلوس على طائرة رمسفلد بالطريقة المتبعة في جميع الأمور في الكونغرس، طريقة اعتماد تسلسل القدم.

"لا يعجبني هذا" قال رمسفلد وقام شخصياً بإعادة ترتيب المقاعد، ناقلاً النائب الجمهوري الكاليفورني الموشك على أن يصبح رئيس لجنة القوات المسلحة البرلمانية دنكان هنتر إلى مؤخرة الطائرة.

في أيار/مايو أراد سناتور الميسيسيبي ترنت لوت، زعيم الأكثرية، تسمية أحد مساعديه السابقين معاون وزير حربية لشؤون الإمدادات. ثمة كان مرفق بناء سفن

عملاق في باسكاغولا بالميسيسيبي مما جعل الأمر مسألة سياسة محلية تخص الولاية بالنسبة إلى لوت.

كان ستيف هيربتس يفكر بمرشح آخر، شخص رآه متمتعاً بقدرٍ أكبر من الخبرة، وكان يحاول تمرير قرار التعيين. يضاف إلى ذلك أن هيربتس كان يخطط لترك البنتاغون والعودة إلى مسقط رأسه في فلوريدا مع حلول منتصف أيار/مايو. فحسب بعض القواعد المبتذلة التي تحكم العلاقة مع متعاقدي الحكومة كان واضحاً أنه قادر على البقاء في البنتاغون حتى إلى ما بعد 15 أيار/مايو.

من الواضح أن لوت لم يكن يعرف شيئاً عن رحيل هيربتس الوشيك، وأوقف العديد من طلبات التثبيت الواردة من الدفاع.

قال لوت لرمسفلد: "إذا كنت تريد تثبيت "زبائنك"، فبادر إلى إعادة هيربتس إلى فلوريدا".

وجد الوزير نفسه في مأزق. قال لمور: "إذا أذعنت لذلك بالابتزاز، فإن الابتزازات ستكر كالسبحة". استدعى هيربتس إلى مكتبه وقال له:

"لا تستطيع الرحيل".

"لماذا؟"

"لأنني لا أستطيع أن أبدو مهزوماً أمام لوت".

ما لبث موعد هيربتس أن حل وعاد إلى فلوريدا لبعض الوقت. كبار موظفي البنتاغون المدنيون سرعان ما كان مجلس الشيوخ يتولى تثبيتهم.

كان رمسفلد بطل مصارعة في جامعة برنستون، واكتشف مور أن أي حوار معه، باستثناءات قليلة، كان نوعاً من المصارعة. من سيكون من فوق؟ من سيقوم بتثبيت ظهر الآخر على الأرض؟ مرة سأل مور رمسفلد عن رأيه بلعبة الغولف: "ألعبها كما لو كنت أصارع". فهم مور من ذلك أن رمسفلد كان يبالغ في تشديد قضبته ويصفع بقوة مفرطة، مقترفاً اثنين من أخطاء الغولف الكلاسيكية.

لم يسبق للوزير أن كان قانعاً بما يتمخض عنه مبنى البنتاغون، مما جعله يرسل مسودة لشهادة وشيكة أمام الكونغرس حول استراتيجية دفاعية جديدة إلى أحد أفضل أصدقائه: كنث آدلمان.

بداية كان آدلمان قد عمل مع رمسفلد في 1970 حين كان الأخير رئيس مكتب الفرصة الاقتصادية. مؤسسة اتحادية لمكافحة الفقر، في عهد الرئيس ريتشارد نكسون. وقد كان ديك تشيني مساعداً آخر لرمسفلد في المؤسسة آنفة الذكر. كذلك كان آدلمان مساعد رمسفلد المدني الخاص خلال توليه لوزارة الدفاع في المرة الأولى، وعمل لاحقاً رئيساً لوكالة الرقابة على التسلح ونزع السلاح خلال إدارة ريغان. كان آدلمان حائزاً على شهادة الدكتوراه في التنظير السياسي وأحد أبرز الصقور الموالين للمؤسسة العسكرية.

قبل كل حفلة تنصيب "ميمونة" - بمعنى حفلات تنصيب الرؤساء الجمهوريين - كان آدلمان وزوجه يستضيفان وليمة عشاء نصف رسمية في منزلهما. كان رمسفلد وتشيني من المدعوين الذين يحضرون بانتظام، غير أن رمسفلد أراد في 1981 أن يتناول وجبة تمهيدية ضحوية في الجوكي كلوب قبل تنصيب رونالد ريغان واقترح على آدلمان: "ادع شخصاً جديداً، ولكن تأكد من كونه لافتاً". وقع اختيار آدلمان على أستاذ بجامعة جونز هوبكنز في الثامنة والثلاثين من العمر يدعى بول وولفوفيتز، سبق له أن كان معاون نائب لوزير الدفاع خلال فترة إدارة كارتر. بعد الوجبة الضحوية عبر كل من تشيني ورمسفلد عن إعجابهما الشديد بالأستاذ الجامعي. راحا يتساءلا عن أصول وولفوفيتز وعن السبب الكامن وراء اطلاعه الواسع.

بعد ذلك، كثيراً ما أمضت عائلتا رمسفلد وآدلمان الإجازات معاً مقيمتين في منزلي رمسفلد في كل من تاوز وسانتافي كما في شقته بشيكاغو. وفي 1986، قام رمسفلد باصطحاب عائلة آدلمان إلى منتجعه الكائن في جمهورية الدومينيكان.

قال رمسفلد لآدلمان: "سأترشح للرئاسة. أريدك أن تدير الحملة".

اعترض آدلمان قائلاً: "إنه ميدانٌ اختصاصي". وأفاد بجهله لألفباء إدارة الحملات الرئاسية.

"ستتعلم ذلك". قال رمسفلد.

مستحيل. لم يكن رمسفلد بحاجة إلى هاوٍ.

"أنت تستطيع أن تحدد القضايا".

ضحك آدلمان: "لا، أنت تعلم أنك ستفعل ذلك بنفسك".

"إذن تستطيع أن تكتب خُطَباً".

"لا، سبق لي أن فعلت ذلك". بالطبع كان سيدعم ترشيح صديقه القديم وسيمد له يد المساعدة قدر استطاعته، غير أنه لم يكن مستعداً لتولي إدارة الحملة.

ما لبثت طموحات رمسفلد الرئاسية أن تبخرت أوائل السنة التالية حين أخفق في جمع الأموال اللازمة، إلا أن الصداقة ازدهرت.

قرأ آدلمان، وهو الآن في الرابعة والخمسين من العمر، مسودة الشهادة المتعلقة بالملف الكبير الخاص باستراتيجية رمسفلد الدفاعية القومية الجديدة. وفي خطاب يخصه من خطابات ندف الثلج مؤلف من ثلاث صفحات كتب لرمسفلد: "تفضي الشهادة إلى هناك برشاقة ويسر ولكنها لا تزال تفتقر إلى عناوين جديدة تحدد مقاربة الوزير الجديدة". ثم اقترح عنوان: "**هامش أمن لأمريكا**".

تقدم أيضاً بتحذيرين. "بعد نجاح أنظمتنا الديمقراطية في إلحاق الهزيمة بالوحشين الشموليين النازي والشيوعي،" توقع الأمريكيون حقبة سلام. ليس بهذه السرعة، قال آدلمان، مضيفاً أن التوقع نفسه كان قد ساد بعد 1914. أورد اقتباساً من كتابات 'ونستون تشيرتشل الشاب والحكيم الدائم،' الذي لخص مثل هذه النزعة التفاؤلية ساخراً: "الحرب أكثر حماقة، أكثر خيالية، من أن يتم التفكير بها في القرن العشرين... لقد تجاوزت الحضارة مثل هذه الأخطار... فالتبعية المتبادلة بين الأمم والدول... روح القانون العام... جعلت مثل هذه الكوابيس مستحيلة". علق آدلمان أن "تشيرتشل نطق بعبارته المأثورة بنبرة صوته المفعمة سخرية قائلاً: "هل أنتم مطمئنون تماماً؟ محزن حقاً أن تكونوا على خطأ!"".

أضاف آدلمان، "نعم كان محزناً حقاً، إذ أن الحرب العالمية الأولى اندلعت في العام نفسه، ثم ما لبثت ثانية أكثر تدميراً أن أعقبتْها. حروب غير قابلة للتصور تغدو مآسي غير قابلة أيضاً للتصور. ستون مليوناً ونيف من الضحايا أظهرت كم كان الوقوع في الخطأ باعثاً على الأسى".

كتب رمسفلد "استخدم" على هامش العبارة المقتبسة من تشيرتشل.

في الفقرة الأخيرة من مذكرة آدلمان وردت عبارة: "**أضف في مكان ما**: عم عدم معرفة مصدر التهديد – عنصر المفاجأة. خَلَفي ومن ثم سَلَفي، ديك تشيني، لم يكن،

لدى توليه للمنصب، قادراً على تصور أن هذه المجابهة العسكرية الرئيسة ستكون مع العراق الذي كان صديقاً في ذلك الوقت. لم يرد أي ذكر لهذا البلد في جلسة تثبيت تشيني ولم يخطر ببال أي سناتور أن يسأله أي سؤال عن العراق".

ندفة رمسفلد الثلجية المؤرخة في 16 أيار/مايو ذات العلاقة بملاحظات آدلمان سجلت أنها "ممتازة" ولا بد من إدخالها في النص. "أعتقد أن عبارة تشيرتشل هذه يجب أن تُستخدم بكل تأكيد".

بعد اثني عشر يوماً، في خطاب يوم ذكرى بمقبرة آرلنغون القومية، استخدم رمسفلد العبارة التشيرتشلية كاملة ثم أضاف أن من شأن توقع نهاية الحروب في القرن الحادي والعشرين "أن يكون مثيراً لما هو أفظع من الأسى والحزن".

وبعد عشرة أيام أعاد رمسفلد استخدام العبارة المقتبسة من تشيرتشل في أحد اجتماعات الناتو ببروكسل. وفي شهادته أمام مجلس الشيوخ عن الاستراتيجية الدفاعية، أشار إلى أن تشيني لم يأت على ذكر العراق في جلسة تثبيته عام 1989، كما استخدم لغة "هامش الأمن" الآدلمانية لتحديد معالم الاستراتيجية.

في أيار/مايو رفض ولي العهد السعودي الأمير عبد الله علناً تلبية دعوة إلى البيت الأبيض بسبب تعامي الولايات المتحدة عن معاناة الفلسطينيين. قال ولي العهد: "ألا يرون ما يتعرض له الفلسطينيون أطفالاً، نساء، شيوخاً – ألا يرون المعاناة والجوع؟"

في الأول من حزيران/يونيو، اقتحم أحد الانتحاريين نادياً ليلياً وقتل 21، في أكبر هجوم منذ تسعة أشهر. تعليقاً على الحادث قال بوش: "أدين بأقوى العبارات الهجوم البشع في تل أبيب مساء هذا السبت. ليس ثمة أي مبرر لمثل هذه الهجمات الخالية من المعنى ضد مدنيين أبرياء". بعد يومين تناول الأمير بندر ورحاب مسعود طعام العشاء في مساكن البيت الأبيض مع بوش، باول ورايس.

أورد بندر خلاصة مطولة لمحاضرة عن نظرة العالم العربي إلى الولايات المتحدة. لم يكن ذلك إلا جزءاً من ثقافة بوش عن أحوال العالم – منظوراً إليها بعيون سعودية – محاضرة دامت خمس ساعات بعد أن بدأت في السابعة مساء واضطرت بوش للسهر إلى ما بعد موعد نومه بوقت قصير.

أفاد بندر بأن الوضع في الشرق الأوسط يزداد سوءاً. قال الأمير: "إن هذا التدهور المستمر سيتيح للمتطرفين في الجانبين فرصة النمو وسيكون هؤلاء الطرف

الرابح الوحيد. أما الولايات المتحدة والأنظمة العربية المعتدلة فسوف تدفع ثمناً باهظاً". ثم أضاف: "مما لا شك فيه أن البلدان العربية المعتدلة، مثلها مثل الولايات المتحدة، خسرت الحرب الإعلامية والرأي العام العربي. فما يراه أي شخص عربي عادي يوميا مؤلم وشديد الإزعاج. جموع من النساء، الأطفال، والمسنين تتعرض للقتل، للتعذيب على أيدي الإسرائيليين".

وحدات عسكرية إسرائيلية، مزودة أكثر الأحيان بأسلحة مصنوعة في الولايات المتحدة، دأبت على اقتحام المناطق الفلسطينية انتقاماً للهجمات. في السنة الماضية كان طفل فلسطيني قد قُتل برصاص الجنود الإسرائيليين فيما كان أبوه يحاول أن يقيه بجسده – صورة تكرر عرضها على شاشات التلفزيونات العربية مئات بل آلاف المرات.

جاء المشهد تعزيزاً لرأي يقول إن الولايات المتحدة داعمة للإسرائيليين المصممين على تدمير السلطة والاقتصاد الفلسطينيين. تمت الإشارة إلى أن "الاستخدام المستمر للأسلحة أمريكية الصنع ضد المدنيين، ضد المؤسسات والكيانات يؤكد للرأي العام أن مقاومة الاحتلال الإسرائيلي بجميع الوسائل الممكنة تُعد، إذن، مشروعة في الشارع العربي".

حاول بوش، باول ورايس أن يردوا، غير أن بندراً تابع كلامه. لم يكن بالضرورة يتحدث عن وقائع بل عن انطباعات. ثم قال بندر إن "مثل هذه الانطباعات تغدو حقيقة في عقول العرب" وإن من شأن "ذلك أن ينطوي على تأثير شامل التدمير واستثنائي الخطورة بالنسبة إلى مصالح الولايات المتحدة في المنطقة. ومن المؤسف أن الانطباع المتشكل الآن لدى العالم العربي عن الولايات المتحدة، القوة العظمى الوحيدة في هذا العالم، ليس انطباعاً عن بلد عادل ومنصف بل عن بلد منحاز كلياً إلى صف الإسرائيليين".

أورد بندر أمثلة عن قيام الولايات المتحدة بإدانة العنف لدى تعرض الإسرائيليين للقتل – كما فعل بوش قبل يومين – "مع التزام الصمت المطبق، في الوقت نفسه، لدى وقوع حوادث مماثلة أودت بحياة فلسطينيين". يؤدي هذا إلى تعريض "العمل الذي تقوم به البلدان ذات العلاقات الوثيقة بالولايات المتحدة، مثل العربية السعودية، مصر والأردن، للخطر.

قال بندر إن هذه البلدان ترى أن العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل منحازة إلى طرف واحد. "يتعين على الولايات المتحدة أن تهتدي إلى طريقة تمكنها من الفصل بين أفعال الحكومة الإسرائيلية وبين مصالحها الخاصة في المنطقة".

وقال إن التدهور العام في المنطقة بات "حتى يشكل تهديداً للوضع الداخلي في الأردن فصار مركز الملك عبد الله مهزوزاً من الداخل. كذلك يواجه الرئيس مبرك وضعاً بالغ الصعوبة". وفي اعتراف غير اعتيادي إلى حد بعيد ولكنه حريص قال مدر إننا حتى في العربية السعودية، "وللمرة الأولى منذ ثلاثين سنة نواجه حالة داخلية شديدة اللبس".

كان بندر يعرف الأزرار التي ينبغي ضغطها. "إن التدهور المستمر يوفر فرصة ذهبية بالنسبة إلى صدام حسين: لخلق أزمة نفطية ونسف استقرار السوق، أولاً". و"من شأن دعوة صدام حسين المستمرة إلى الجهاد ضد العدو الصهيوني وأمريكا الامبريالية أن توجد تربة بالغة الخصوبة" ثانياً. وأضاف إن الشارع العربي سيتحرك، خصوصاً "في غياب أي انخراط أمريكي حقيقي، صادق، وأي خطط متوازنة".

قال بندر إن من شأن انهيار السلطة الفلسطينية، "إضافةً إلى فقدان الفلسطينيين للأمل أن يخلق وضعاً بالغ الخطورة وصعوبات كبيرة ليس فقط بالنسبة إلى الولايات المتحدة والدول العربية المعتدلة، بل وبالنسبة حتى إلى إسرائيل".

شن بندر هجوماً عنيفاً على خطة إسرائيل المتمثلة بهدم منازل أهالي المتورطين في الأعمال الإرهابية ضد إسرائيل. "كيف سيكون رد فعل الشعب الأمريكي، يا سيادة الرئيس، إذا ما جرى هدم بيوت جميع أقارب ماك في الذي قام بعملية التفجير الإرهابية في أوكلاهوما سيتي؟"

راح بندر يناشد الرئيس: "عليك أن تفعل شيئاً يا سيادة الرئيس. لابد من أن تفعل أي شيء. أعني أنكم تقتلوننا أساساً. نتعرض للذبح يميناً ويساراً وأنتم لا تفعلون شيئاً".

كان بوش قد انتقد الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات وقراره القاضي بالخروج من التسوية مع إسرائيل في اللحظة الأخيرة قبيل انتهاء إدارة كلنتون، بشدة. قال بوش "عرفات كذّاب". لم يكن مستعداً للتفاوض مع عرفات الذي يستحيل العمل معه وتتعذر الثقة به.

رد بندر "رائع. هو كذاب. نحن نعرف ذلك. أنتم تعرفون ذلك. إنه أحمق. غير أنه الأحمق الوحيد المتوفر لنتعامل معه". المشكلة أكبر من رجل واحد.

رسالة بندر الختامية: "المنطقة تغلي والغليان يتصاعد باطراد".

في 16 حزيران/يونيو كان بوش في سلوفينيا للقاء الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، كجزء من رحلته الرئاسية الكبرى الأولى إلى ما وراء البحار. وقف الرئيس،

منتظراً وصول بوتين، مع دونالد بي إنسينات، زميل قديم من الأخوية نفسها وجرى تعيينه منذ عشرة أيام فقط رئيساً لإدارة المراسم بوزارة الخارجية. الرجلان كلاهما – إنسينات وبوش – كانا عضوين في صف بيل لعام 1968، كما كانا عضوين في فريق دلتا كاپا إبلسون المعروف بـ "ديك" اختصاراً. كان الورود الأول لاسم بوش في **نيويورك تايمز**، في تشرين الثاني/نوفمبر 1967 بوصفه رئيساً سابقاً لفريق "ديك"(*) وهو يدافع ممارسة تعهدات أخوية بعلاّقة معاطف ساخنة.

في مقابلة أجريتها معه في 2002، روى لي بوش القصة التالية عن حديثه مع إنسينات وهما ينتظران رئيس دولة أجنبية في إحدى القلاع السلوفينية العائدة إلى القرن السادس عشر.

مستخدماً لقب إنسينات في الأخوية قال بوش: "إنه لمدهش، أليس كذلك، يا إنزو؟"

"نعم، سيادة الرئيس".

"إنها طريق طويلة من بيت ديك في بيل".

"نعم، سيادة الرئيس".

(*) كلمة ديك Deke بالعامية تعني: اخدع شريكك في لعبة الهوكي. المترجم.